كنوز الأدب العالمى

(٢)

غادة الكاميليا

تأليف

الكاتبة الفرنسية

مارسيل موريت

ترجمة

حبيب جاماتى

obeikandl.com

شركة الدلتا اليوم للصحافة والنشر والتوزيع والدعاية

دار دلتا للنشر

رئيس مجلس الأدارة

المحاسب

أحمد التلاوى

الناشر

سليمان القلشى

مستشار النشر

أحمد سويلم

الطبعة الأولى
الكتاب : غادة الكاميليا
المؤلف : مارسيل موريت
ترجمة : حبيب جاماتى
تصنيف الكتاب : رواية
تصميم الغلاف : محمد جمال
إخراج : أحمد عبد الحليم
المقاس ١٤ × ٢٠
رقم الإيداع : ٢٢٥٤١ / ٢٠١٥
الترقيم الدولي : 978 - 977 - 776 - 132 - 1

العنوان : ٧ شارع الموسيقار على إسماعيل الدقى

التليفون : ٣٣٣٧٨٣١٩ - ٣٣٣٨٧٠٣٩

email : elyoumnew@gamil.com

obeikandl.com

شخصيات الرواية

الفونسين دوبليسى (أو مارى دوبليسى) : غادة الكاميليا.. غانية جميلة نشأت فى أسرة فقيرة مفككة بالريف ثم أو مارى دوبليسى صارت من بائعات الهوى المشهورات فى باريس.

دلفين : شقيقة الفونسين. بقيت تعيش فى قرية نونان حيث نشأتا.

مارى : أم الفونسين ودلفين.صاحبة حانوت ريفى متواضع ، لم توفق فى حياتها الزوجية واضطرت إلى احتراف الخدمة بالمنازل.

ماران : أبو غادة الكاميليا ، ريفى فرنسى قوى بهى الطلعة ، يعمل بائعاً جوالا ، وكان مستهتراً بالدين والفضيلة والحياة العائلية.

الدوق آجينور دى جيش: نبيل شاب جميل وقع فى غرام غادة الكاميليا وهجرها وعاد إليها مرات.

فيرون : مديـر دار الأوبـرا بباريـس ومـن عشـاق غـادة الكاميليـا

الكونت دى باريجو: نبيـل مـن رجـال الجيـش وقـد تـزوج غـادة الكاميليـا

الكونت ستاكلبرج : نبيـل روسـى ثـرى فـى الثمانـين ومـن عشـاق غـادة الكاميليـا

أسكندر دوماس الابن : أديـب فرنسـى عبقـرى أحـب فـى شبابه غـادة الكاميليـا وأحبتـه، وخلـد ذكرهـا فـى قصـة ومسـرحية.

فرانز ليست : موسـيقى شـاب بادلتـه غـادة الكاميليـا الحـب واتفقـا علـى القيـام برحلـة إلى الشـرق، لكنـه سـافر وحـده فـى رحلـة فنيـة ماتـت هـى قبـل عودتـه منهـا

كلوتيلد : وصيفـة غـادة الكاميليـا، أخلصـت لهـا حتـى النهايـة.

openkandil.com

مؤلفة الرواية

« مارسيل موريت » كاتبة فرنسية مجيدة، لها فى الأدب الفرنسى الحديث جولات صادقة، وآثار قيمة، وبحوث دقيقة عميقة، ومكانة تزداد على الأيام رسوخا، وهى تجول بقلمها فى ميدانين: ميدان الرواية القصصية، وميدان الرواية المسرحية. ومن مسرحياتها التى أحرزت نجاحا كبيرا على مسارح باريس : «الربيع»، وقد نالت عنها جائزة جونكور، و «خاتم فى أصبع» وقد مثلت على مسرح فمينا. و «بليروفون» وقد مثلت على مسرح أوديون « و «برج الغرام» التى مثلت على مسراح جران جنيول، و«مانون ليسكو»، ومثلت على مسرح مونبارناس.

ولعل اضطلاعها بدراسة حياة « مانون ليسكو» كان الدافع لها إلى دراسة حياة «مارى دوبليسى»، أو « غادة الكاميليا». فثمة تشابه كبير بين حياة الغانيتين الساحرتين: مانون ليسكو التى أرخ حياتها الأب بريفو، ومارى دوبليسى التى خلد دوماس الابن ذكرها فى مسرحيته «غادة الكاميليا».

ومن يطالع مؤلفات مارسيل موريت يتضح له بلا عناء أن هذه الكاتبة اللبقة قد شغلت وقتها بدراسة الحب وكل ما يتصل به وبحياة النساء اللواتى وهبن أنفسهن له. فإن كل رواياتها أو جلها، تدور حوادثها حول عاطفة الحب ومآسيه. على أن دراستها لحياة مارى دوبليسى، قد استأثرت منها بعناية أخص وجهد أكبر، ولهذا خرجت كاملة الروعة ممتازة من جميع الوجوه.

وغادة الكاميليا – كما صورها اسكندر دوماس الابن فى مسرحيته الرائعة – امرأة عاشقة أودى بها الحب. ولكن هذه المرأة التى صور حياتها فى تلك المسرحية بقيت لا يدرى أحد أهى شخصية من نسج الخيال؟ أم شخصية حقيقية نقل دوماس حياتها إلى المسرح بتصرف أو غير تصرف؟ إلى أن أخرجت مارسيل موريت قصة حياتها التى نقدم اليوم ترجمتها للقراء مضافا إليها بعض التفاصيل التى تساعد القارىء فى تفهم هذا الموضوع الطريف من جميع نواحيه

الفصل الأول

باريس سنة ١٨٤٠

نحن الآن فى ربيع سنة ١٨٤٠، فى باريس:

الشاعر فيكتور هوجو فى كهولته، يقيم بحى ماريه.. مشغولا بصوغ القصائد وتأليف الروايات عن خيانة زوجته له.

والسيدة جورج صاند تكتب رواياتها، وهى مرتدية «بنطلونها» الأحمر وتدخن لفافات التبغ.

والفريد ديفيريا يسجل بريشته مناظر باريس الفاتنة بكل ما يميزها عن العواصم الأوربية الأخرى، من شوارع عريضة تحف بها الأشجار وتتخللها الحدائق والنصب والتماثيل...

وهنا وهناك، فى جانب من الطريق، تجلس بعض ربات البيوت الفقيرات عاصبات جباههن بمناديل زاهية الألوان، وهن يقطعن الوقت بالحديث أو التطريز، وفى الشوارع التى تقوم بها المتاجر الكبرى تلوح الفتيات العاملات غاديات

obeikandl.com

رائحات فى خطوتهن الرشيقة، وابتساماتهن المشرقة، وثيابهن الفضفاضة وشعورهن المنمقة.

وفى الطريق إلى الحمام الصينى، يمشى كهل بدين يضع على قبعته الشارة المثلثة الألوان، واسمه لويس فيليب، وهو نفسه الذى صار فيما بعد ملكا على فرنسا.

وهنا وهناك أيضا رجال آخرون، يهرعون إلى الاجتماعات التى تدبر فيها المؤامرات. وحدائق فسيحة يلعب فيها الأطفال، وأكثرهم يرتدون الزى السكوتلاندى الشائع فى ذلك الحين. وشوارع قديمة مزدحمة، تقوم على جوانبها بيوت متواضعة، تجمعت أمامها مياه راكدة تفوح الروائح الكريهة مما ألقى فيها من القمامة والقاذورات. وهى مظلمة حالكة الظلام بعد غروب الشمس، يرتع فيها اللصوص الذين تحدث عنهم الروائى «أوجين سو» فى كتابه «أسرار باريس»، ومع هذا لا يكاد ينقطع منها وقع خطى العشاق طول الليل، وما يتناجون به من همسات ويتبادلونه من ضحكات؟

أما الميدان الفسيح، المعروف باسم « القصر الملكى» والشوارع المحيطة به، فهناك تتجلى باريس المرحة اللاهية الطروب، ولا سيما بعد غروب الشمس، حيث تجلس بعض

الأميرات خلف نوافذ قصورهن يستعرضن المارة، وتحفل المقاعد العديدة بالجالسين على الأفاريز ليمتعوا أنظارهم بمشاهدة المتأنقين المتحذلقين من أبناء الأسر الكبيرة، وقد ارتدوا أفخر الأزياء وراحوا يتبخترون فى الشوارع ويغازلون الغيد الحسان، بين ماشيات على الأقدام، وراكبات عربات تجرها الخيول.

وبين هذه العربات، عربة زرقاء يبطنها قماش أزرق أيضا، ويجرها جواد أصيل يقوده حوذى ضخم الجسم طويل القامة. ومن نافذتها تطل يد ناعمة فى قفاز حريرى بديع، وقد أمسكت أصابعها بحنان زهرة يانعة من أزهار الكاميليا.

هذه اليد الناعمة الجميلة لحسناء تدعى مارى دوبليسى، وهى المعروفة باسم «غادة الكاميليا».

عهد الطفولة

كان اسمها حين ولدت فى إقليم « أورن » الريفى فى مقاطعة « نورماندیا « الفرنسية « الفونسين دوبليسى «، وهى لا تذكر من عهد الطفولة – عدا اسمها الحقيقى هذا – إلا خيالات وأطيافا غير واضحة لمزرعة غنية بالماشية والألبان، ولامرأة قروية على رأسها منديل كانت تعيش معها فى تلك المزرعة، هى أمها.. مارى.

وفى الشتاء حين كانت الأمطار تحيل الطرق إلى غدران وأوحال، كانت أمها تقربها منها، وتضمها إلى صدرها، ثم تدنو بها من الموقد، فترسل النار أشعتها على وجهها الصغير الجميل. بينما أختها الكبرى «دلفين» تلصق وجهها بزجاج النافذة لاهية بمراقبة الطريق.

لقد كانت الأم تدير حانوتا صغيرا لبيع الخردوات فى تلك القرية الصغيرة، وكانت هى (الفونسين) فى التاسعة من عمرها، واختها (دلفين) فى الحادية عشرة، حين دهمهن ذلك الشتاء ببردة القارس ومطره المنهمر، فقل الإقبال على حانوتهن القروى الصغير، وصار النهار ينقضى دون أن تدخل عليهن فيه إلا جارة عجوز أو فتاة

من فتيات القرية، من حين إلى حين، لشراء إبرة أو شمعة.

وكانت الشقيقتان الصغيرتان تختصان أمهما الحنون بكل حبهما، ولا تكادان تشعران نحو أبيهما بغير المقت والخوف من أذاه، فقد كان دائم التجوال فى طول البلاد وعرضها، ولا يأوى إلى القرية إلا أياما كل بضعة أشهر، ولم يكن خلال هذه الأيام يمنحهما أى عطف أو حنان؛ إذ كان يمضيها عادة فى سكر وعربدة، أو فى شجار مع أمهما.

وإنها لتذكر تلك الأقاصيص العجيبة التى كانت الأم تقصها عليهما فى ليالى الشتاء الباردة المظلمة، لترفه عنهما عناء السعى فى طلب الرزق عبر الحقول والوحول، عدا البرد والجوع، فقد كانتا أحيانا لا تجدان لعشائهما غير كسرات من الخبز الجاف. وكانت الأم حريصة لذلك على أن تكثر فى أقاصيصها من ذكر الموائد الشهية والعيش الهانىء المريح.

ولعل أعجب تلك الأقاصيص وأروعها وأبقاها أثرا فى ذهن الفونسين، هى قصة زواج أمها من أبيها.

لقد كانت مارى فى مستهل شبابها تقف ذات مساء بباب المنزل الذى تعيش فيه فى القرية مع أبويها، ومر عليها ساعتئذ فتى غريب يحمل على ظهره كيسا مملوءا بمختلف السلع. وشد ما كان اضطرابها إذ وقف أمامها بحمله الثقيل، ثم قال لها فى لهجة رقيقة بعد أن تأملها مليا بعينيه النفاذتين:

– لقد فاجأنى الليل، والطريق طويلة وعرة، فهل لى أن أرجو السماح لى بأن أقضى ليلتى هنا أيتها الآنسة الكريمة.

ولم ترد هى واستمهلته بإشارة من يدها حتى تدعو أباها ليراه ويسمع منه. ثم شعرت بشىء من العطف عليه والرثاء لحاله حين سمعته يقول لأبيها.

– اسمى ماران، ويكفينى فراش من القش فى الاسطبل مع الماشية، فأنا فى شدة الحاجة إلى النوم بعد أن أجهدنى السير طول النهار.

وكان وجهه يبدو قاتما كذلك المساء الشاتى، لكنه لاح لها جميلا جذابا حين ابتسم لها شاكرا وهو يمشى بحمله إلى الاسطبل بعد أن سمح له أبوها بالمبيت فيه؟

وبقيت نظرته وابتسامته يراودان خيالها بعد أن أوت إلى فراشها، ثم وجدت نفسها تتسلل إلى الاسطبل عند منتصف الليل بعد أن نام أبواها وساد السكون أرجاء البيت، وهناك أمضت ساعات بجانب الفتى الغريب ماران، واستطاعت برغم الظلمة السائدة أن تتبين أنه أكثر جمالا وجاذبية.

وبعد شهر أصبحت مارى زوجة ماران، وأقام معها بالبيت نفسه فى قرية كورمنيل.

★★★

ومـرت أعـوام والأم تسـتعيد هـذه الذكـرى كلمـا خلـت إلى نفسـها فـى غيـاب الـزوج الدائـم التجـوال. وكانـت تحبـه برغـم عيوبـه الكثـيرة التـى بـدأت تظهـر لهـا منـذ اليـوم الأول لزواجهمـا، حتـى لقـد ضربهـا فيـه.

وصـار مـاران بعـد ذلـك صاحـب بيـت وحانـوت فـى قريـة « نونـان» ولكنـه كثـيرا مـا يهجـر بيتـه وحانوتـه تـاركا فيهمـا زوجتـه وابنتيـه، ضاربـا فـى طـول البـلاد وعرضهـا أيامـا وأسـابيع وشـهورا كمـا تقـوده أهـواؤه. وعندمـا يشـتد اليـأس بالمـرأة المسـكينة تأخـذ ابنتيهـا وتنطلـق بهمـا فـى الحقـول حيـث الماشـية ترعـى، أو فـى الغابـات الكثيفـة والجبـال، وكثـيرا مـا كانـت مـارى تعـود إلى البيـت ومعهـا ابنتاهـا بعـد أيـام، فـإذا مـاران قـد سـبقهن اليـه عائـدا مـن طوافـه، ومعـه غـير قليـل مـن المـال، وكيسـه المملـوء بالسـلع المنوعـة والأدوات الغريبـة التـى يسـتخدمها فـى القـرى لاسـتطلاع الغيـب ودفـع الأذى والضـرب بالرمـل وطـرد الأرواح الشـريرة، فقـد ذاع صيتـه بـين القرويـين بأنـه يحسـن قـراءة المسـتقبل ومخاطبـة الأرواح، وأنـه لمحتفـظ بقوتـه محتفـظ بجمالـه بعـد كل تلـك السـنين. لكنـه محتفـظ كذلـك بشراسـته، فمـا تـكاد المسـكينة تدخـل البيـت حتـى يبادرهـا بلطمـة علـى وجههـا، لأنـه لم يجدهـا فـى البيـت حـين عـاد إليـه، لكنهـا مـع ذلـك تتلقـى اللطمـة صامتـة راضيـة، فهـى تحبـه، نعـم تحـب رجلهـا وترضـى

بالمعاملة التى يرضاها لها. وإذا ضربها فإنها لا تشكو، بل تعد الضرب مظهرا من مظاهر القوة والرجولة الكاملة.

وتقف الصغيرتان الفونسين ودلفين صامتتين خائفتين، بينما يتناول أبوهما الشمعة الوحيدة فى البيت ويمضى بها إلى الحجرة التى بها فراشه.

وهنا تتسلل الطفلتان إلى السلم الخشبى المؤدى إلى الحجرة العليا، وتصعدان إليها فى الظلام الدامس، ثم تتسلل الزوجة بعد ذلك إلى حجرة الزوج، لتقضى بجانبه ساعات كتلك التى قضتها معه فى ذلك اليوم السعيد الذى التقت وإياه فيه للمرة الأولى فى الأسطبل، الذى ببيت والديها فى قرية كورمنيل.

تلك هى أم الفونسين دوبليسى، وذلك هو أبوها.

obeikandl.com

حياة مضطربة

إنها لحياة عجيبة مضطربة، تلك التى عاشتها الفونسين فى طفولتها؛ فالأيام تمر متشابهة، تعب بالنهار فى مساعدة أمها بالحانوت أو الحقول، فيما عدا فترات قصيرة تقضيها فى اللهو واللعب مع لداتها وأترابها من أطفال القرية حفاة الأقدام، وليال باردة ترتعش فيها المسكينة وتبيت جائعة تحلم بالموائد الشهية التى تذكرها أمها فيما تقص عليها من حكايات.

وكثيرا ما كان الأب يطرد زوجته وابنتيه فى بعض الليالى، بعد أن يشبعهن ضربا وسبا، ثم يغلق خلفهن باب البيت ويوصده من الداخل، فتقف الطفلتان مرتعشتين من البرد، وعيونهما مغمضتان لشدة حاجتهما إلى النوم.

وتحاول الأم إقناع الأب القاسى بأن يفتح الباب فتناديه بصوت كأنه صياح حيوان مذبوح: « ماران !.. ماران !..». لكنه لا يلين ولا يرحم، بل يلقى على زوجته الماء من النافذة لكى تبتعد.

إن الفونسين تذكر كل هذا، وتذكر أيضا أنه كان يحدث من وقت إلى آخر أن يفتح أحد الجيران نافذة بيته، ويتمتم قائلا: « مسكينة !أطردك اليوم أيضا ؟». ثم يفتح باب داره، ويدعو الأم وابنتيها إلى المبيت عنده؟

نعم إن الفونسين تذكر ذلك كله، وتذكر أن أختها كانت تنام، أما هى فتبقى مستيقظة فى فراشها حتى تشرق الشمس، فتغادر أمها بيت الجار الذى قضت فيه ليلتها حزينة باكية، وتعود بها وأختها إلى أبيهما حيث يجدنه جالسا على عتبة المنزل يدخن ويغنى.

نعم، إنه كان قاسيا شرسا لا يساوره أى ندم على ما فرط منه، ولا تعرف الرأفة والشفقة إلى قلبه سبيلا. ولهذا كان يتلقاهن بطوفان من الشتائم والبصقات، وقد يعاود ضربهن أحيانا، ولكن أمها كانت على يقين من أنه هكذا خلق، ولن يتغير أبدا، فعليها أن توطن نفسها على تقبل العيش معه فى ذلك الجحيم الذى لا يطاق، مستسلمة للأقدار.

لقد كانت تحبه ولا شك. ولكنه كان يكرهها. وكثيرا ما جرها إلى الشارع من شعرها، عارية أو شبه عارية، بينما الطفلتان تصيحان من الرعب والفزع، وألف الجيران هذا العراك، فصاروا لا يفتحون نوافذهم ولا يهرعون لنجدة الزوجة وابنتيها، وأكثرهم يعتقدون أن ماران بتجديفه

وعربدته وقسوته على زوجته وابنتيه جر الشؤم على القرية كلها، وأن الله قد غضب عليهم جميعا لوجوده بينهم.

وكان ماران ملحدا، لا يصلى، ولا يعترف بأن فى الدنيا شيئا محرما، والويل ثم الويل لمن يعانده مخالفا رأيه، أو يحاول نصحه وإرشاده، إذ سرعان ما يتجهم وجهه الجميل، وينقلب إلى وحش مفترس، وقد حاول ذات ليلة أن يحرق زوجته،.. فاستيقظت من نومها مذعورة؛ إذ وجدت النار مشتعلة فى أنحاء البيت، ورأت حجرتها قد امتلأت بالدخان واصطبغ جوها بلون اللهب الأحمر، وحول فراشها أكوام الحطب والعيدان الجافة التى وضعها زوجها فى الحجرة وأضرم فيها النار، فهرولت مسرعة إلى الغرفة العليا وهى فى قميص النوم الممزق، وانتزعت طفلتيها من فراشهما وفتحت النافذة وجعلت تصيح مستغيثة مستنجدة، فأسرع الجيران من بيوتهم متسائلين عما هناك، ورأت الزوجة المسكينة زوجها واقفا بينهم يقهقه ساخرا..

ومنذ ذلك اليوم، قررت مارى أن تهجر البيت وتفترق عن ماران، ونفذت عزمها بلا إبطاء، ودهش الرجل لإقدام زوجته على هذا العمل اليائس الذى لم يكن ينتظره منها، وراح يبحث عنها فى المنازل التى تعودت أن تأوى إليها وكثيرا ما كانت ترى وجهه ملتصقا بزجاج الأبواب

والنوافذ، وهى قابعة فى بيت من بيوت القرية، وكانت رؤيته أحيانا تعيد إلى ذهنها ذكرى قبلاته الحارة ورائحة الأسطبل الذى قضت معه ليلتهما الأولى فيه، ولكنها كانت تؤثر ابنتيها على نفسها، وسرعان ما تسترد إرادتها، وتصر على اعتزامها الابتعاد عن الرجل الذى سامها سوء العذاب.

وكان القرويون إذ يلتقون بالزوج المهجور هائما على وجهه فى الطرقات، باحثا عن زوجته وابنتيه، رافعا قبضة يده إلى السماء شاتما مجدفا، يبتعدون عنه مرتجفين، ويستغفرون الله على ما بدر منه، خوفا من أن تحل عليهم بسببه لعنة الله.

وأخيرا، طلبت مارى إلى صديقة لها من نساء البلدة أن تجد لها عملا عند إحدى الأسر، فقالت المرأة :

– إننى أعرف سيدة إنجليزية غنية تدعى الليدى اندرسون ياربروج، وهى تعيش فى عزلة عن العالم فى بلدة تقع فى طريق باريس وجنيف، ولاشك فى أنك سترتاحين إلى خدمة تلك السيدة الطيبة، وتجدين الخلاص مما أنت فيه.

وتصورت مارى تلك السيدة الانجليزية امرأة جافة طويلة الأنف شقراء الشعر منعزلة فى دار فسيحة على ضفاف بحيرة هائدة، بين الأشجار والرياحين، وتصورت نفسها خادمة عندها تساعدها فى ارتداء ثيابها، فقبلت ما عرضته

عليها صديقتها، ممتنة شاكرة، وأودعت ابنتها الفونسين عند ابنة عم لها عجوز، وأرسلت ابنتها الكبرى دلفين إلى أقارب لها فى إحدى القرى.

ولم تستطع مغالبة دموعها حين افترقت عن الطفلتين، وفزعتا هما إذ حسبتا أن بكاء أمهما جزءا من اضطرارها إلى العودة إلى ذلك الأب القاسى البغيض، ولكن الأم هدأت روعهما، وأكدت لهما أنهما لن تعودا إليه أبدا، وسوف تعيشان سعيدتين فى المزارع والحقول، إلى أن تدبر أمرها، وتعود اليهما لتأخذهما حيث تعيشان معها من جديد.

وظلت الفونسين طول حياتها تذكر ذلك المكان الذى ودعت فيه أمها، بين أشجار التفاح، بالقرب من بيت قروى صغير جاثم فى الحقل الأخضر، وظلت طول حياتها أيضا تذكر وجه أمها الحزينة وقد بللته الدموع، وثوبها الممزق الأزرق، وخطواتها المتثاقلة فى أوحال الطريق، وهى تبتعد وتلتفت، ثم تبتعد وتلتفت، إلى أن اختفت عن نظرها بعد أن لوحت لها بيدها مودعة.

★★★

عاشت الفونسين منذ فارقتها أمها عيشة حيوان صغير، وتعلمت القراءة؛فكانت تحمل كتابها وتجرى فى المروج تحت

أشعة الشمس، وكانت تنهض مبكرة فى الصباح، فترتدى ثيابها بسرعة، دون أن تغسل وجهها أو تسرح شعرها، ثم تنظر إلى صورتها فى المرآة وتخرج لها لسانها ساخرة ضاحكة أو رافعة صوتها بالغناء، وتندفع بعد ذلك هابطة السلالم فى سرعة إلى الطابق الأرضى حيث يجلس الفلاحون من أهل البيت على مقاعد من الخشب يتناولون الإفطار.

وكثيرا ما كان الرجال والفتيان فى بيئتها الجديدة يحاولون مداعبتها ومشاكستها، بالحديث تارة، وبالأيدى تارة أخرى، ومع أنها لم تكن جاوزت الثالثة عشرة من عمرها حينذاك، كان جمالها جذابا مغريا، ولكنها كانت لا تتردد فى أن تصفع كل من يتمادى معها فى المغازلة.

وفى الصيف، بعد انتهائها من غسل الصحون وإعداد أدوات المطبخ كانت المرأة العجوز، ابنة عم أمها، تجلسها بجانبها فى القاعة الواسعة لكى تعلمها الخياطة ونسج الصوف، ولكن الفتاة كانت تتثاءب وتتململ، لأنها لا تحب هذا النوع من التعليم، وتؤثر عليه الجرى فى الحقول، ومطاردة الأرانب والدجاج، والغناء مع العصافير، إنها حقا لحيوان صغير غير أليف، والمرأة العجوز تحاول إصلاحها دون جدوى، ثم تقول لها:

– يا ابنتى المسكينة، إنك مهملة قذرة، وقد يئست من تربيتك، فاذهبى لحراسة البقر أيتها الفتاة المتوحشة.

وكانت هذه الكلمات تبعث السرور فى صدر الفونسين، فتنهض من مكانها مندفعة إلى الخارج هاربة من البيت الذى خيل إليها أنه سجن مظلم، وكانت تؤثر قضاء أيامها فى الحقول، مستلقية على العشب، سكرى برائحة الأرض المخصبة، حيث ينمو القمح وتتفتح أكمام الأزهار.

وهكذا عرفت الفونسين الربيع الجميل الضاحك، والصيف ذا الشمس الوهاجة، والخريف المجدب الكئيب، والشتاء القاتم الحزين، وأحبت الماشية التى تعيش بينها، وأنست بقربها ومداعبتها وملاعبتها، وكثيرا ما فكرت فى أمها، وساءلت نفسها: «لماذا لم تعد؟ ألم تؤكد أنها ستعود وسنعيش معا من جديد»، وفى بعض الأحيان كانت تنطلق مع عواطفها المهتاجة فترفع صوتها وهى فى الحقل هاتفة : « أماه ؟. أماه ؟. أين أنت يا أماه؟»، فلا يجيبها إلا الصدى، وهنا تشعر المسكينة بأن دمعة تتدحرج على خدها، فتمسحها بكم قميصها، ثم تنطلق هائمة على وجهها فى الحقل تنشد السلوى والنسيان.

★★★

وعرفت الفونسين الحب، كما عرفته أمها من قبل؛ففى ذات يوم كانت وحدها فى المزرعة، وقد اتكأت على كومة من الأعشاب، ومضت تسرح طرفها فى الأفق مطلقة لأفكارها العنان، وفيما هى كذلك لمحها فتى من عمال المزرعة وهو فى طريق عودته إلى القرية، فتوجه إليها وحياها، وكان الفتى جميلا قويا جذابا، فردت تحيته الرقيقة بمثلها، ثم وقف يحدثها ويداعبها فلم يسعها الا أن تقابل تحببه إليها بمثله، ومضت ساعات وهما يتبادلان الأحاديث والمداعبات، ولم تسل الفونسين متعة الحب منذ تلك الساعة، وبقيت تمارسه بلا انقطاع.

وكان شبان القرية والقرى المجاورة لها يتنافسون فى التقرب منها والإلحاح على قلبها المتفتح للحب بشتى المغريات، فنشأت علاقات غرامية بينها وبين كثير منهم، وكان بعضهم يعاملونها بعنف وقسوة ويضربونها أحيانا، بينما الآخرون يحرصون على التزام الرقة واللطف معها، ولكنها لم تجد بين هؤلاء وهؤلاء من يحملها على أن تهبه قلبها كله، ويشعرها بأنه يريدها لنفسه وحده، على أنها مع ذلك لم تيأس، لأنها سمعت وقرأت عن نساء عرفن الغنى والشهرة والجاه عن طريق الحب، وبقى الأمل يراودها فى أن تلتقى يوما بالحبيب الشاب المتأنق الغنى الجميل، الذى

يحقق لها ذلك الحلم اللذيذ، وينتشلها من البؤرة التى تردت فيها، لتعيش معه عيشة الترف والسعادة والاستقرار.

ولاح لها أخيرا أن تبحث بنفسها عن ذلك الفارس أمير الأحلام المنشود، وكانت تعلم أن نبيلا شابا تنطبق عليه هذه الأوصاف، يقيم بقصره القريب من القرية، ويخرج من وقت لآخر للصيد والقنص فى الغابة المجاورة والحقول المترامية الأطراف، فاعتزمت أن تسعى إلى لقائه، وأن تبذل كل ما فى وسعها لإغرائه، وأمضت أياما، وهى لا هم لها إلا الخروج إلى الغابة حيث تقضى الساعات الطوال كامنة مترصدة ترقب مجىء ذلك النبيل الشاب، وخفق قلبها بشدة إذ وقعت عيناها عليه ذات يوم قادما على صهوة جواده فى طريقه إلى الصيد، وخيل إليها أنه أجمل رجل على وجه الأرض، فنهضت من مخبئها، ووقفت فى طريقه تنظر إليه وتبتسم، فلما رآها توقف عن السير وأخذ يتأملها فى إعجاب، ثم أشار إليها بالاقتراب منه، فمشت إليه فى خفر ودلال، ومدت يدها إلى يده الممدودة فأمسكها وأخذ يربتها بيده الأخرى، ثم انحنى فوق جواده نحوها ورفعها إليه حيث طبع على فمها قبلة طويلة حارة، ثم أعادها إلى الأرض وتأملها قليلا، ثم همز جواده ومضى فى طريقه ضاحكا بعد أن ألقى إليها بقطعة من الذهب،

وساءها أنه لم يخاطبها بأية كلمة، ولم يلتفت إليها بعد ذلك، فتركت القطعة الذهبية حيث استقرت على الأرض بين أوراق الشجر المتناثرة، وعادت أدراجها متئدة الخطى، يملأ قلبها الحزن، وملأ أنفها رائحة المسك التى علقت بثوبها حين قبلها النبيل الشاب، وكانت تحدث نفسها قائلة: « أهذه نهاية ما عللت به النفس من أمانى وأحلام؟»

وشاع أمرها بين الشبان، فأقدم أحدهم – مدفوعا بالغيرة والحسد – على الوشاية بها لدى المرأة العجوز التى تنزل عندها، فغضب هذه وأرغت وأزبدت، وانتظرتها ذات مساء على باب البيت وبيدها عصا غليظة انهالت بها ضربا عليها وطردتها مشيعة بأقذر السباب.

ولم تتكلم الفونسين، ومضت فى طريقها مبتعدة بين أشجار التفاح، تلاحقها لعنات العجوز الشمطاء، وضحكات الشبان الشامتين.

ولم تلتفت وراءها، إلى أن اختفت فى الظلام، ولم يكن أمامها إلا أن تعود إلى بيت أبيها فى قرية نونان.

سلالة عجيبة

كان ماران أبو الفونسين ما زال مقيما وحده ببيته الضيق القذر، وكان كذلك ما زال محتفظا بقوته وشراسته، وجماله أيضا، وقد تعود أن يجيء إلى البيت بين حين وآخر بامرأة من الطريق، تقيم به أياما معه، ثم يطردها فتنصرف دون أن تتفوه بأية كلمة.

والحق ان سلطان ذلك الرجل العجيب على النساء كان قويا يدعو إلى الحيرة، وكثيرات من أولئك الزائرات العابرات كن يتقبلن منه الضرب وأسوأ أنواع المعاملة راضيات، ثم يذهبن بعد أن يطردهن شاكرات حافظات ذكرى الأيام التى سعدن فيها بالعيش وإياه.

ولما وصلت الفونسين إلى البيت، كان ماران وحده على غير عادته، وكان الوقت مساء، فرفع الشمعة بيده، وحدق البصر فى وجهها طويلا، ثم دعاها إلى الجلوس فجلست فى ركن من أركان الحجرة، وجعلت تأكل بشراهة ما قدمه لها من طعام، ثم لزمت الصمت وقد تولاها شيء من الحذر بل الخوف.

وأخذ أبوها يتأملها، بعد أن شبعت وارتوت، وقد استرسل شعرها على كتفيها، وبرقت عيناها وارتسمت على شفتيها ابتسامة حلوة برزت من خلالها أسنانها الناصعة البياض، ثم تمتم قائلا:

- لقد كبرت وصارت جميلة حقا..

واحتفظ بها فى بيته، حيث انصرفت من جديد إلى غسل الصحون وإعداد الطعام وكنس الأرض وتنظيف البيت.

ثم أخذت تطوف على الجيران سائلة عن مصير أمها، فعلمت إنها تنقلت بين عدة قصور ودور خادمة أو طباخة، وأنها لقيت ضروبا من العذاب، وحدثها الجيران أيضا عن جدتها لأمها، فعلمت منهم ما لم تكن تعلم من أن تلك الجدة، واسمها آن، كانت تنتمى إلى أسرة نبيلة كريمة هى أسرة «درجانيل». وكان منتظرا أن تتزوج نبيلا ثريا فى مثل مقام أسرتها، لكنها أحبت خادما شابا جميلا، وأسلمته نفسها مضحية فى سبيل حبه بكل صلة لها بأسرتها وطبقتها، راضية مغتبطة بالعيش معه فى كوخ متواضع بسيط، حيث أنجبت له ابنة واحدة هى مارى أم الفونسين.

وتمنت الفتاة أن لو ساعدتها الظروف فعاشت كما كانت تعيش جدتها النبيلة، فى كوخ يخيل إليها أنه قصر منيف.

وكان أبوها لا يزال منصرفا إلى بيع سلعه فى المدن والقرى والأقاليم فيخرج بكيسه على كتفه، ويعود بعد غياب قد يدوم أياما أو أسابيع، ومعه امرأة جديدة تقيم بالبيت بضعة أيام ثم تنصرف، وفى أثناء إقامتها يتشاجر ماران معها ويضربها كعادته، فلا تتدخل الفونسين فى الأمر كأنه لا يعنيها، واذا إستفحل الشجار فانها تخرج من البيت وتهيم على وجهها بضع ساعات فى الحقول ثم تعود بعد أن تهدأ العاصفة، وكانت فى أكثر الأحيان تجد أباها وحده، وقد طرد المرأة كما طرد غيرها من قبل، فيفتح ذراعيه لابنته ويناديها بلطف:

- تعالى يا حبيبتى؟

ثم يأخذها بين ذراعيه، ويضاحكها، ويتحسس كتفيها وظهرها وصدرها، وينظر إليها بإعجاب وهو يتمتم قائلا:

- جميلة !.. جميلة !

وفى بعض الأحيان كان يجلسها بجانبه أمام المدفأة بعد أن يغمرها بالقبلات، ثم يتحدث إليها عن ماضيه البعيد المجهول.

وهكذا، علمت الفونسين من أحاديث أبيها أن أمه كانت متشردة متسولة تجوب الطرقات، وأنها أحبت خادما فى كنيسة، وكان هو ثمرة ذلك الحب، فيالها من سلالة عجيبة !

وقال ماران لابنته وهو يحدثها عن أمه هذه:

– لقد ماتت فجأة فى ظروف يكتنفها الغموض، وقد وجدتها ملقاة فى حفرة على جانب الطريق وهى تسلم الروح، فأغمضت عينيها، وماتت ورأسها على يدى.

ولم تكن الفونسين فى حاجة بعد ذلك إلى من يحدثها بأن أباها ورث عن أمه جمالها الآسر وإمعانها فى مغامرات الغرام.

★★★

وجاء يوم باع الأب ابنته كما يبيع سلعة من سلعه؛ ولم يكن ذلك مستغربا من سكير فاسق مثله لا دين له ولا ضمير، فقد أخذ ينظر إلى الفونسين بعد أن استقرت فى بيته نظره إلى دمية جميلة يمكن أن تعود عليه بفائدة، وما لبث أن جعل من ذلك البيت بؤرة فساد، يدعو إليها الرجال ويتركهم مع الفتاة التى عرفت الحب من قبل ولم يعد فيه جديد عليها.

لقد كان أترابها من الفتيات يلعبن فى الحقول أو يجرين فى الطرقات فرحات مرحات، أما هى، فإن أباها كان يحبسها فى البيت مع رجل واحد أو أكثر، بينما يذهب هو إلى حيث يشرب كأسا أو يقابل امرأة.

ولم يكتف الأب الفاسد المستهتر بذلك، وأبى إلا أن يمعن فى هذا الطريق الدنس إلى نهايته، فتوسع فى الاتجار

بابنتـه، وجعـل يقودهـا بيـده إلى بيـوت منعزلـة يسـلمها فيها إلى رجـال وشـبان لا تعرفهـم، وكانـت الفتـاة تفعـل مـا يطلبـه أبوهـا منهـا دون أن تمتعـض أو تشـكو أو تثـور، وكثـيرا مـا كانـت تقول لنفسـها : « إن الأقـدار أرادت لى هـذا المصـير فلتكـن مشـيئة الأقـدار».

obeikandl.com

يبيعها للغجر

ولم تمض أشهر حتى أصيبت الفتاة بالضعف والهزال، فراح أبوها يبحث لها عن عقاقير شافية، ولكن العقاقير لم تجد ابنته المسكينة نفعا، فازداد وجهها شحوبا، وغارت عيناها، وأوشكت شعلتها أن تنطفىء.

وفكر ماران فى إعادة ابنته الكبرى دلفين إلى بيته ليستغلها بدلا من الفونسين المريضة، ومضى إلى أقاربها الذين أودعتها أمها لديهم ليستردها منهم، ولكنهم طردوه وكادوا يضربونه بالعصى، فعاد إلى بيته دونها وأخذ يعزى نفسه عن فشله هذا، بأن دلفين ليست جميلة جذابة كأختها.

ثم لاح له أن يتخلص من الفونسين ببيعها إلى جماعة من الغجر، وسرعان ما نفذ عزمه هذا، وباعها لأولئك الغجر بثمن بخس دراهم معدودة، وكانوا فيها من الزاهدين.

وكان الغجر الذين بيعت لهم الفونسين يطوفون البلاد فى عربة ضخمة يجرها حصان هزيل، وكانوا يتكلمون لغة غريبة لا تفهم منها الفتاة شيئا، وقد لاحظت خلال رحلتها الاولى معهم أن السكان يفرون من طريقهم، راسمين

على وجوههم شارة الصليب، مستعيذين بالله من شر أولئك الأفاقين الذين لا يتورعون عن ارتكاب أية جريمة، ولا يعيشون إلا على النهب والسلب.

وكانوا يجلسونها بجانب سائق العربة، وهو عملاق يضع فى أذنيه حلقات من النحاس، أما النساء الأخريات فكن يمشين خلف العربة، ويعرجن فى الطريق على المنازل والحوانيت للاستجداء بقراءة الكف والتنجيم، ولكن أبواب المنازل كانت تغلق فى وجوههن، كما كان أصحاب الحوانيت يطردونهن أو يلقون إليهن بقطع من النقود، فيرجعن بعد التقاطها للمشى خلف العربة ناقمات شاتمات.

وكان ذلك فى شهر مايو، وأشجار الحدائق حافلة بالثمار، وروائح الورود والأزهار تعطر الجو، والحقول تكسوها الخضرة الزاهية، والشمس تلقى أشعتها الذهبية هنا وهناك فى الطريق الذى تسلكه قافلة الغجر إلى باريس.

وفى أكثر الأحيان، كانت الفونسين تغمض جفنيها وهى جالسة بجانب سائق العربة، ثم تستغرق فى تفكير عميق مرير، تتراءى لها خلاله صورة القرية التى ولدت فيها والبيت الذى تركت فيه أباها واقفا على الباب يعد النقود التى باعها بها وهو فرح فخور، إنها الآن فى الخامسة عشرة من عمرها، لا تملك غير رزمة من الثياب القديمة

وكتاباً صغيراً، ولم يلق أحد نظرة حنان عليها وهى تودع القرية؛ فهى وحيدة فى العالم... وحيدة لا يفكر فيها أحد، وهى يتيمة برغم أن أباها وأمها على قيد الحياة.

وكانت الفتاة تدرك مدى المأساة التى تكتنفها، ولكنها تشعر بأن ليس فى استطاعتها أن تجد مخرجا لنفسها، فلا يسعها الا الاستسلام للمقادير تقرر مصيرها كما تشاء.. وفى الليل حينما يخيم الظلام على القافلة، ويهجع أفرادها للراحة من عناء الرحلة الشاقة، كانت ترفه عن نفسها بالوسيلة الوحيدة التى تملكها، فتطلق لدموعها العنان.

وكان الغجر كلما أدركهم المساء، يقفون بعربتهم عند أطراف الحقول، حيث يطلقون حصانها ليرعى الأعشاب، ثم يجلسون على الأرض حول النيران التى يوقدونها لإعداد طعامهم، فتبدو وجوههم فى ضوء لهيبها المضطرم كأنها وجوه الشياطين، وكانوا يقضون السهرة فى الحديث والغناء بلغتهم الخاصة، فإذا ساق القدر إليهم أحد المارة بالطريق فسرعان ما يحيطون به رجالا ونساء وأطفالا متظاهرين بطلب الإحسان، ثم لا يتركونه الا بعد أن يجردوه من كل ما معه من مال أو متاع.

وكانت هى أول الأمر لا تفهم غناءهم وحديثهم، وتكتفى بأن تنظر إليهم صامتة لا تبدى حراكا ولا تقول شيئا.

ولكنهم أخذوا بعد ذلك يلقنونها لغتهم وأساليبهم في السرقة والاستجداء، وقصروا مهمتها في الأيام الأولى على مشاغلة الكلاب كيلا تنبح، بأن تلقى إليها قطعة من الخبز وتحاول أن تداعبها بكلمات رقيقة وصوت عذب، بينما يكون الرجال والنساء قد ذهبوا للسطو على الأرانب والدجاج وكل ما يقع في متناول أيديهم.

وفي بعض الليالي، حينما تأوى الجماعة إلى داخل العربة، كانت إحدى النساء تجلس إلى الفتاة لكي تعلمها قراءة الكف وصنع التعاويذ والطلاسم، ولكل أمر من الأمور تعويذة أو طلسم خاص به، فهذا للحب ، وذاك لدفع الخطر، وآخر للإيقاع بعدو، أو لإيقاع العداوة بين متحابين.

ولكن الفتاة لم تكن تشعر بميل إلى تعلم شيء من ذلك كله، وكان يخيل إليها أنها لن تستطيع إتقان أسلوب واحد من عشرات الأساليب التي يلجأ إليها الغجر للسرقة والاحتيال.

وهكذا بدأ القوم يعاملونها بقسوة وحشية، ويحاولون تعليمها بالضرب والتعذيب.

وعندما كانت الجماعة تقترب من قرية أو مزرعة أو مدينة، كانت إحدى الغجريات المدربات تتولى إعداد الفتاة للعمل، فتنسق لها هندامها، وتمسح لها وجهها بطرف

ثوبها بعد أن تبصق عليه، وتعلمها كيف تخدع الأهالى ببيعهم سلعا لا تساوى شيئا بثمن فادح جسيم، وتعلمها كيف تبتسم للشبان لكى ينقدوها مالا أو يعطوها طعاما، ولكن الفتاة بقيت لا تتقن شيئا من هذه الأساليب، وكثيرا ما كان الرجال والشبان الذين تكلف أن تخدعهم، يخدعونها هى وينالون منها ما يشاءون دون أن تنال منهم ما ينقذها من الضرب والتعذيب حين تعود إلى مرابط الغجر خالية الوفاض.

obeikandl.com

فى باريس

اقتربت قافلة الغجر أخيرا من باريس، فاستقر رأى ذوى الكلمة فيها على التخلص من الفونسين ، لأن رجال الشرطة يرابطون فى مفترق الطرق حول العاصمة الكبيرة، وهم يكثرون عادة من الأسئلة ويريدون معرفة كل شىء، وقد يعرفون أمر شرائهم تلك الفتاة البلهاء، التى لا تفيدهم شيئا، بل تعيش عالة عليهم.

وبدت المدينة العظيمة فى الأفق، بعماراتها الضخمة، وأنوارها المتلألئة، ثم بدت شوارعها المزدحمة بالناس والعربات.

وشعرت الفونسين بأن العاصمة الصاخبة تفتح لها ذراعيها لتحتضنها أو تقبلها.

وقال لها كبير الغجر : « لم نعد فى حاجة إليك فاذهبى إلى حيث شئت، ثم تركوها وانصرفوا، فوقفت فى عرض الطريق ذاهلة حائرة، وخيل إليها أنها تسمع صوتا يطن فى أذنيها قائلا:

– لا تخافى. تعالى... تعالى أنا باريس... أنا باريس.

نعم، إن باريس قبلة أنظار العظماء والصعاليك، والأغنياء

والفقراء على السواء، ولكن ماذا تفعل الفونسين فى باريس، وليس معها إلا رزمة الثياب المزقة وذلك الكتاب الذى تعلمت فيه القراءة؟

وتلفتت الفتاة حولها، فإذا الشمس قد غربت وبدأ الظلام يسدل ستاره على المدينة الصاخبة، وأذن.. ليس فى استطاعتها البقاء فى عرض الطريق حيث تركها الغجر، ولابد لها من مواصلة السير نحو مصيرها الجديد، ذلك المصير الذى يكتنفه الغموض والإبهام.

ومشت الفتاة فى الشوارع الواسعة، ومرت أمام الحوانيت والمخازن والمسارح والمقاهى، ولاحظت كثرة النساء فى باريس، وأنهن جميلات وبعضهن يركبن عربات تجرها خيول مطهمة، ويرتدين أفخم الملابس، وعلى صدورهن ونحورهن ومعاصمهن تتلألأ الجواهر والحلى، وتفوح من أردانهن أذكى العطور.

ولاحظت كذلك كثرة الباعة ونشاطهم ومكرهم، فهم يهرعون إلى المارة حاملين سلعهم الغالية والرخيصة، وسرعان ما يبيعونها لهم، ويقبضون النقود.

وهنا تذكرت المسكينة أنها لا تملك من النقود شيئا على الإطلاق، وأخذت الفتاة ترقب الرجال المتأنقين وهم

يسارعون إلى النساء الجميلات فيخاطبونهن، ويضاحكونهن، ويغازلونهن علنا...

إن باريس تضحك لكل من فيها من الرجال والنساء، فهل تراها تضحك فى وجهها هى أيضا؟

وعرجت فى طريقها إلى بعض الشوارع الضيقة، المتفرعة من الشوارع الواسعة.. فخيل إليها أنها انتقلت من المدينة العظيمة إلى قرية صغيرة. فهؤلاء نساء يجلسن على الأبواب يتبادلن الأحاديث، وهؤلاء أطفال يلعبون فى الطريق، والقطط تجرى بينهم، ثم انتهت الفتاة إلى شوارع فسيحة أخرى فيها عمارات شاهقة إلى جوار المنازل الصغيرة.

إن باريس مختلفة الوجوه والجوانب... إنها مدينة وقوية، عاصمة ومزرعة.

ومشت الفونسين ساعات طويلة، وخيل إليها أنها تمشى منذ أيام... ما أجمل ما ترى، ولكن، ما أقسى الجوع أيضا... إن الفونسين جائعة، لإنها لم تتناول طعاما منذ ظهر ذلك اليوم، ولم يكن طعامها غير قطعة من الخبز الجاف.

ووصلت أخيرا إلى ميدان القصر الملكى، وشعرت بأنها تعبت ولم تعد تستطيع مواصلة السير، فدخلت حانوتا هناك

فـى ركـن الميـدان، وكان هـذا الحانـوت لامـرأة تشـتغل بغسـل الثيـاب وتنظيفهـا وكيهـا، وقـد عـرض بعضهـا فيـه عرضـا رائعـا أبـرز بياضهـا الناصـع، كمـا أن جدرانـه ومقاعـده ومناضـده كلهـا ناصعـة البيـاض، والفتيـات العديـدات العامـلات فيـه كلهـن فـى ثيـاب أنيقـة بيضاء، وهـن يرحن فيه ويجئن مرحـات ضاحكات.

ولبثـت الفونسـين واقفـة بالبـاب مشـدوهة مسـحورة، لا تدرى مـاذا تقـول، ورأتهـا صاحبـة الحانـوت فابتسـمت لهـا وسـألتها:

– ما بك يا ابنتى الصغيرة؟ وماذا تريدين؟

وظلـت الفونسـين صامتـة، بـل شـعرت برعشـة تنتابهـا، فاضطربت، وأوشـكت أن تبكى، وفهمت المرأة فاسـتطردت قائلة:

– آه ؟.. لعلك تبحثين عـن عمـل ؟.. ادخلـى، ادخلـى ولا تخافـى... فليـس هنـا مـا يخيـف؟

وضحكـت الفتيـات الآخريـات، ودخلـت الفونسـين... ولكنهـا سـقطت علـى الأرض مغشـيا عليهـا مـن الإعيـاء والجوع، وأسـرعت فتيـات الحانـوت إليهـا لإغاثتهـا.

وهكـذا صـارت الفونسـين عاملة فـى حانوت الغسـالة بباريس.

ونجحـت الفونسـين فـى عملهـا الجديـد، وكان الفضـل فـى نجاحهـا لجمالهـا وخفـة روحهـا، ولأنهـا تفهـم ما يطلـب منها.

وكانت تخرج كل يوم فى ثوبها الأبيض الجديد، وقد حملت بيدها سلة بيضاء فيها الثياب البيض التى تم غسلها وكيها، لتعيدها إلى أصحابها فى منازلهم كما أنها كانت غسالة ماهرة.

وتحسنت صحتها وحالتها بمرور الأيام، وصار فى استطاعتها أن تأكل حتى تشبع، وأن تنام مطمئنة هادئة البال.

ثم انتقلت من حانوت الغسالة، إلى حانوت امرأة أخرى تصنع القبعات، ونجحت هنا كذلك بفضل جمالها ونشاطها وأمانتها كما نجحت هناك، ولم تمضى أسابيع حتى انتقلت إلى مصنع للأزياء تديره امرأة باريسية ثالثة ، وعهد إليها فيه حمل الأزياء التى تم صنعها إلى صاحباتها من الغيد الحسان فى القصور والفنادق الكبيرة.

obeikandl.com

البحث عن الحب

أتاح لالفونسين عملها فى مصنع الأزياء أن تطلع على دخائل الحياة المترفة فى باريس، وارتفع مستوى حياتها تبعا لذلك، فصارت ترتدى الثياب الأنيقة فى ساعات الفراغ وصار الرجال والشبان المتأنقون يتبعونها فى الشوارع، ويهمسون فى أذنها كلمات رقيقة وعبارات مغرية، ويلح بعضهم فى دعوتها إلى العشاء فى أحد المطاعم الكبرى، أو السهرة فى بعض المقاهى والملاهى، أو التنزه فى عربة فخمة تجرها الجياد المطهمة، على أنها كانت تصم أذنيها عن كل هذه الدعوات، مكتفية بابتسامة حلوة، تواصل السير بعدها تاركة مغازلها مأخوذا بجمالها وفتنتها وسحرها، لتقف بعد قليل تمتع عينيها بالمعروضات البديعة الرائعة فى واجهات المخازن، أو تدخل مطعما متواضعا أو دكان حلوى.

ما أجمل ذلك كله؟ فهل يجىء يوم يصبح فى طاقتها أن تأكل ما تريد، وتلبس ما تريد، وتبتاع بمالها ما يحلو لها ابتياعه من تلك الأزياء والقبعات والأحذية والأطعمة الشهية؟ إنها ترغب فى كل شىء، وتتوق إلى كل شىء، وتطمع فى كل شىء. ولكنها تتجنب التسرع خوفا من العواقب.

وحينما تعود إلى حجرتها الضيقة، التى استأجرتها على سطح أحد المنازل، كانت تخلع ثيابها، وتقف أمام المرآة معجبة بنفسها.

إنها جميلة حقا، ولكن الفتيات صواحبها فى الحانوت الذى تعمل فيه لا يرين هذا الرأى، ويدعين أنها ليست جميلة، وأنها لن تجد فى باريس عشيقا يحبها وينفق عليها.

وأرادت الفونسين أن تكذب ادعاءهن، فسعت، ووجدت ضالتها المنشودة، فاتخذت لنفسها عشيقا.

ولم يكن اختيارها موفقا لأنها تعجلت الأمر كى تغيظ رفيقاتها فوقعت فيما كانت تتجنب الوقوع فيه، وتبين لها أن الشاب الذى وقع عليه اختيارها ليكون أول عشيق لها بباريس، ليس سوى غر أحمق، لا يمتاز بشىء عن آلاف الشبان الخاملين، وليس له ثروة ولا جاه ولا نبوغ ولا نشاط، وإنما هو قروى جاء إلى باريس فلم تفتح أمامه أبواب النجاح، وكل ما كسبته منه الفونسين أنه كان يخرج معها متأبطا ذراعها، ويأخذها إلى المطاعم الرخيصة التى يعرف فيها الخدم ويحييهم تحية الزميل للزملاء، وفى أيام الأعياد، كان يصطحبها إلى مسرح الكوميدى فرانسيز، حيث يبتاع لها وله تذكرتين فى«أعلى التياترو» لمشاهدة تمثيل مدام راشيل. وهناك تجلس الفونسين وقد لامس رأسها سقف المكان،

وتنظر بعين الإعجاب إلى ما يجرى على المسرح، وتصغى إلى تلك الممثلة العظيمة التى تشبهها من بعض الوجوه، وهى ترسل صوتها القوى الجهورى بعبارات رائعة فتهز أركان المسرح وتثير هتاف السامعين، فإذا إنتهى التمثيل خرجت مع عشيقها عائدين مشيا على الأقدام، وتبادلا القبلات على ضوء المصابيح المنتشرة على جانبى شارع ريفولى.

ولم يطل بها الوقت حتى ملت هذا العشيق الذى لا يمكن أن يحقق آمالها، فهجرته غير آسفة، ثم مضت تبحث عمن هو خير منه، فساقت إليها الظروف شابا تافها أشقر الشعر، يعمل فى بيع الأقمشة فى شارع صغير، ويخشى الأمراض والميكروبات، فيقضى نهاره فى ابتلاع الحبوب وتناول العقاقير.

وأدركت الفتاة أن هذا العشيق لا يفضل عشيقها السابق، فأبدلت به غيره، وطفقت تنتقل من شاب إلى شاب، وكأنها فى حلقة الرقص تختار راقصا بعد آخر، ثم تنساهم جميعا بعد حين.

وكانت صاحبات الحوانيت التى تعمل فيها يؤنبنها على هذا السلوك، وينصحن لها بألا تتعجل تغيير عشاقها هكذا. ولكنها لم تكن تعمل بتلك النصائح ولا تعبأ بذلك التأنيب، معتقدة أن من الخير لها أن تمضى فى البحث والتجربة إلى أن تعثر على الرجل الذى يكفل لها تحقيق حلمها المنشود.

وكانت بحكم عملها كثيرة التردد إلى بيوت الغيد الحسان اللاتى تملأ أسماؤهن الأسماع فى باريس. وهى تدخل عليهن مخادعهن، وتلمس ما يحيط بهن من ترف ونعيم ، وترى كيف يعشن مستمتعات بالحب والشهرة والبذخ، فلماذا لا تحاول أن تكون مثلهن. أليست المسألة كلها حظا وفرصة مواتية تغتنمها حين تسنح لها؟

وفطنت زميلاتها الفتيات العاملات إلى أنها لم تعد تلك القروية الساذجة التى وفدت على باريس بثيابها المهلهلة ومعدتها الخاوية، وأنها بدأت تزاحمهن على الرجال، فتنكرن لها، وآثرت هى ترك العمل فرارا من ذلك الجو الذى يفيض بالغيرة والحسد، وأدركت أن الاشتغال بالغسل والخياطة والأعمال اليدوية ينهك صحتها ويجعد بشرتها ويفقد أناملها نعومتها التى تمتاز بها، إنها تريد أن تكون غادة حسناء بين غيد باريس الحسان، لا عاملة خاملة فى حوانيتها ومخازنها.

ولكن كيف تعيش بعد اعتزال العمل، ومن أين لها المال الذى تنفق منه، لقد أمضت أشهرا وهى تبحث عن العشيق الذى تعلل به النفس فى أحلامها، ولكنها لم تعرف خلال هذه الأشهر غير بعض الطلبة المفلسين، والشيوخ المتصابين، والشبان الثائرين على المجتمع ونظام الحكم، أو أدعياء

النبوغ فى الفنون الجميلة، كأولئك الرسامين الذين كانوا يسوقونها إلى بيوتهم ويرسمونها عارية فى لوحاتهم السخيفة.

وساءت حالها من جديد، ولكنها لم تيأس، ولم تعمد إلى البحث عن عمل آخر غير الذى فقدته، بل واصلت البحث عن ضالتها المنشودة مدركة أنها لا يمكنها الاعتماد على أحد، فإما أن يكتب لها التوفيق والنجاح فى الحياة التى اختارتها لنفسها ، وإما أن تقضى على نفسها بيدها، فتموت وتستريح.

ودلتها التجارب التى مرت بها على أن التوفيق سيحالفها ذات يوم، فالشبان يلاحقونها، والقلوب تخفق لها، والعيون تعجب بها، ولكن الظروف لم تضع بعد فى طريقها غير أناس ليسوا أغنياء ولا وجهاء.

إنها جميلة، جذابة، ولابد أن يجىء اليوم الذى يراها فيه أحد أولئك القادرين على رفعها إلى المستوى الذى تتوق إليه، ولكن هذا يحتاج كذلك إلى حظ، فلتصبر إذن ولا تقنط من الحياة، ولتواصل بحثها فى هدوء ومسايرة للظروف حتى يحين ذلك اليوم المنشود.

وهكذا استمرت الفونسين تتردد إلى الحى اللاتينى، وحى مونمارتر، وتغشى المقاهى والملاهى والملاعب، وترتاد ميادين السباق وغابة بولونيا، وكل مكان يمكن أن تلتقى فيه بمن

يستهويه جمالها وتلفت نظره أناقتها وتسحره ابتسامتها.

وذاعت شهرتها بين الطلبة فى الحى اللاتينى خاصة، فكانوا لها من حيث لا يشعرون، دعاة يرددون اسمها ويتحدثون بجمالها ورشاقتها فى كل مكان.

وكان ملهى «مابيل» من بين الملاهى التى حبب إليها غشيانها، فهناك تجمعت كل أسباب اللهو والمرح واللعب، حيث يلتقى الباريسيون على اختلاف طبقاتهم ونزعاتهم وثرواتهم، للرقص والشراب والاستمتاع بمختلف المباهج، وكانت ترقص فيه ساعات عديدة بلا انقطاع، متنقلة من ذراع هذا إلى ذراع ذاك، وهى تضحك وتغنى أحيانا، وترقب دائما، وتمنى النفس بأن الراقص الذى يخاصرها هو ذلك الوجيه الثرى الذى تحلم به، فإذا فرغت من الرقص، ذهبت لقضاء بقية سهرتها فى مقهى لوكسمبورج، حيث يجلس الرجال يشربون الخمر ويعربدون، وهناك تتجرع كؤوسا من شراب «الروم» الثقيل متعمدة أن تسكر، فإذا دار الشراب برأسها، أخذت تدور بعينيها فى أنحاء المقهى وهى لا تكاد ترى غير أشباح تضطرب أمامها، وضجة السكارى تطن فى سمعها، وهنا يساورها أملها القديم الجديد، فتعلو شفتيها ابتسامة جميلة، وتحس أن قلبها يرقص بين ضلوعها ، فتتكىء على المنضدة وتغمض جفنيها

مستسلمة لذلك الأمل العذب اللذيذ، وكثيرا ما كانت بائعة الورود تقترب منها حينذاك لتدس فى يدها ورقة صغيرة مطوية، فتفتحها بعناية وتقرأ فيها: « إننى أحبك... فهل لك أن تسعدينى باللقاء؟»، ثم تلتفت حولها باحثة عن كاتب هذه الكلمات، وسرعان ما تراه وتعرفه بنظراته فتشير إليه أن ينتقل إلى منضدتها حيث تشرب معه كأسا أو كأسين، وهى خلال ذلك تدرسه للوقوف على حقيقة أمره، فاذا تبين لها انه ليس بالرجل المنقذ الذى تبحث عنه وترغب فيه، تلطفت فى التخلص منه، ثم نهضت وعادت إلى حجرتها لتقضى ليلة أخرى مليئة بالأحلام.

★★★

ومضت شهور وهى على هذه الحال، وعرفت خلالها عشرات من الفتيات والسيدات، اللاتى يبحثن مثلها عن منقذ ينتشلهن من البؤس والشقاء.

لقد تنكرت لهن الدنيا، وتنكر لهن المجتمع، فكانت كل منهن تخرج فى زينتها وثيابها الزاهية باحثة عن قوت يومها فى سوق الرزيلة، لكنها وإن لم تؤمن بالفضيلة، تحتفظ فى قرارة نفسها ببعض ما تلقنته فى طفولتها من تقوى الله، فهى ترتكب أشنع الذنوب ولكنها تصلى لله، وهى تعرف الخطيئة والتوبة فى لحظة واحدة.

وعرفت الفونسين أن أكثر هؤلاء الزميلات اللائى تلقاهن فى روحاتها وغدواتها، لهن أمهات يعشن معهن تحت سقف واحد، وكان هذا يدعوها إلى التساؤل بينها وبين نفسها عما حدث لأمها، واين تراها تعيش هى وأختها دلفين.

وكذلك عرفت الفونسين أن لبعض أولئك النسوة أطفالا تركتهم فى الأقاليم البعيدة أو القريبة، فى قرية أو مزرعة، حيث تذهب كل أم منهن لزيارة طفلها مرة كل أسبوع أو كل شهر، فكانت تحمد الله على أنها لم تصر أما مثلهن.

ولكن إلى متى ستدوم هذه الحياة، ومتى ينتهى البحث ويعقبه الفرج الذى ترجوه الفونسين وتتمناه، لقد مرت بها ايام عز فيها عليها الطعام، ومرت أيام أخرى ضيق فيها الدائنون عليها الخناق مطالبين بديونهم. وفيهم البقال وبائع اللبن والخياطة وصانع الأحذية. وهى لا تملك ما تقضى به الديون وتسكت الصائحين المهددين.

وفى تلك الفترة من حياتها المضطربة، عرفت الفونسين ألوان العذاب والحرمان، بعد أن طردتها صاحبة المنزل من الحجرة التى استأجرتها فيه، لأنها لم تدفع الإيجار، وحجزت على ثيابها وقبعاتها، على أنها برغم ذلك كله لم تيأس، واستمرت فى البحث والتنقيب.

وفى ذات يوم قضت بضع ساعات فى طواف مستمر بلا فائدة، ثم قادتها قدماها إلى شاطى نهر السين، فوقفت هناك تنظر بعين ملؤها النهم والرغبة إلى بائع البطاطس المقلية الساخنة، وهو يبيعها للمارة، ورآها على هذه الحال شاب كان يعد فى ذلك الوقت من أكثر الباريسيين تأنقا وكرما، يدعى (نستور روكيلان) فأشفق عليها، وابتاع لها كيسا كبيرا من تلك البطاطس المقلية الشهية، ووضعه فى يدها، فاحمرت وجنتاها ونظرت إلى الفتى الغريب الكريم نظرة شكر وامتنان، وراحت تأكل بشراهة، وهو ينظر إليها متمتما : « مسكينة.. إنها جميلة جدا». ثم ابتعد دون أن يفوه بكلمة أخرى ولم تجرؤ هى على مخاطبته.

إن لقاء ذلك الفتى العطوف كان فألا حسنا، فبعد أيام وجدت الفتاة حظها للمرة الأولى، فى شخص بدين يضع على رأسه قبعة عالية، وعلى صدره سلسلة ذهبية فى طرفها ساعة ثمينة، وعلى أنفه نظارة، وفى يده عصا، وكان الرجل صاحب مطعم معروف فى باريس، يقع فى ممر مونبانسيه قرب القصر الملكى، وهو من أنصار العهد السابق، وما زال يذكر عهد الملك شارل العاشر، الذى خلفه على العرش الملك لويس فيليب، ويرى أن باريس كانت فى عهد الأول خيرا منها فى عهد الثانى، وأن الحفلات التى

كانت تقام فى العهد السابق امتازت بروعتها وجلالها، على الحفلات الشعبية التى أصبحت تقام منذ تولى الملك لويس فيليب عرش فرنسا، فإن هذا عرف من قبل بميوله الديموقراطية، وآرائه الحرة، وكان يناصر رجال الثورة، فلما ولى العرش غضب النبلاء والأشراف ولزموا قصورهم وبيوتهم وقاطعوا الحفلات الرسمية لأن الملك كان يدعو إليها أفرادا من جميع طبقات الشعب.

وكان أكثر عملاء المطعم من أنصار العهد السابق أيضا، ومن هنا لم يعد صاحبه البدين يجد ما يشغله من استقبال عملائه من النبلاء والأشراف، الذين كانوا يفدون إليه، وصار يزجى أوقات فراغه فى التنزه هنا وهناك باحثا عما يعزيه ويسليه.

وفى إحدى نزهاته، بصر بالفونسين واقفة فى ميدان لويس السادس عشر، ترتقب عربة الركاب الكبيرة، وقد وضعت على رأسها قبعة صغيرة زاهية لم تدفع ثمنها بعد، وأمسكت بيدها مظلة زاهية استعارتها من إحدى صديقاتها، فجمد فى مكانه ذاهلا، وتمتم قائلا: «إنها لفتاة جميلة حقا»، وبقى هنيهة حائرا لا يدرى : أيقترب منها ويخاطبها، أم يومىء إليها لتقترب منه هى، أم يركب العربة معها، ثم وصلت العربة أخيرا فحل وصولها مشكلته وقرر أن يستقلها ما دامت الفتاة الحسناء قد سبقته إلى ذلك.

وكانت العربة مزدحمة بالركاب، وهم جميعا من الباريسيين المرحين، وقد جلسوا متراصين فى العربة التى تجرها ستة خيول قوية، ولم يبق بينهم غير مقعدين خاليين، سارعت الفونسين إلى أحدهما.

وكادت تسقط على الارض قبل أن تبلغ المقعد لولا أن تداركها صاحب المطعم الذى صعد العربة خلفها فأسندها بذراعه حتى جلست، ثم جلس بجانبها فى المقعد الآخر الخالى، فابتسمت له، وشكرته بكلمة رد عليها متمتما: «إننى سعيد... سعيد حقا... سعيد جدا». ولم يقل أكثر من هذا، فقد صاح الحوذى قائلا «إلى سان كلو. إلى سان كلو»، وتحركت العربة، وارتفعت أصوات الركاب من عشرين فما بعبارة واحدة: «إلى سان كلو... إلى سان كلو....».

إن سان كلو هى الضاحية المحبوبة التى يهرع إليها الباريسيون فى أيام الآحاد للترويح عن النفس والراحة من عناء العمل الأسبوعى، وكانت الشمس متلألئة تسكب أشعتها على الطريق كأنها تشارك المسافرين مرحهم وبهجتهم، والخيول تثير الغبار بحوافرها، والعربة تلتقى بعدد لا نهاية له من العربات الاخرى، صغيرة وكبيرة، تحمل الباريسيين إلى سان كلو وتعود بهم إلى باريس.

وتناولت الفونسين من جيبها منديلا مطرزا وجعلت تمسح به وجهها أو تستعيض به عن المروحة، وبدا ذلك الوجه نيرا تحت أشعة الشمس الوهاجة، ومن وقت إلى آخر، كانت حركة العربة تدفع بها نحو جارها فتتنهد وتغمغم بصوت ناعم تنفذ نبراته إلى أعماق صدره قائلة : « عفوا يا سيدى»، فيبتسم هو الآخر ويتمتم قائلا: « لا بأس يا سيدتى».

وحدث أن تشاجر بعض الركاب بسبب طفل صغير كان يضايقهم، ولكن المشاجرة انتهت بسلام، وجعلت العربة تصعد مرتفع باسى وتتجه نحو ضفة نهر السين مخترقة غابة بولونيا ، وكان يحيط بالغابة فى ذلك الوقت سور مرتفع، يتراكم التراب على أرضه، وكان يخيل إلى الباريسيين أنه واقع فى أطراف الدنيا، ولا يذكرونه الا ممتعضين، ولا يؤمه أحد منهم للنزهة، بل يجتازونه على مضض مسرعين.

وبدت خلف الأشجار منازل البلدة، فصاح الحوذى : «سان كلو»، وردد الركاب صياحه : «سان كلو، سان كلو»، ونهض صاحب المطعم وبسط يده لجارته ليساعدها على النزول، كما ساعدها من قبل على الصعود.

ومشى الاثنان جنبا إلى جنب فى تلك الحديقة الفسيحة، وكان الرجل يضغط يدها وهى تتظاهر بالسذاجة وتلهو بمظلتها الصغيرة كأنها طفلة.

وكان المارة يملأون الطرق المتشعبة خلال الأشجار الوارفة، ووجهتهم القصر العظيم القائم على ربوة هناك مشرفا على الحديقة، والكلاب تمرح وتعوى بلا انقطاع، والاطفال يلعبون أو يتشاجرون، والباعة يتسابقون إلى عرض سلعهم المنوعة بين قطع من الحلوى التى جاءوا بها من باريس، وصور ورسوم، وروائح وعقود، وراح صاحب المطعم، بعد أن شجعته الفونسين، يفضى إليها بأعجابه وهيامه، ويهمس فى أذنها كلمات طالما سمعتها من الرجال فى باريس، وكانت تصغى إليه دون أن تفارق الابتسامة شفتيها، وتفكر فى الشتاء الذى صار على الأبواب، وهى لا تملك للقائه الأثواب الدافئة والمأوى المريح والنقود الكافية.

وكان رفيقها قد فطن إلى ما تفكر فيه، فجعل يحدثها عن مسكن يعرفه فى شارع أركاد، مسكن صغير دافىء، تتوافر فيه أسباب الراحة ولا ينقصه غير الحسناء التى ترضى بأن تقيم به، إنه يضع هذا المسكن تحت تصرفها، فهو لها إذا شاءت، ولا يطلب منها مقابل ذلك إلا أن تبادله حبا بحب.

الحب؟ إن الفونسين لتعلم أن الحب لا شأن له بتلك العلاقات العابرة، التى عرفتها من قبل، وسوف تعرفها من بعد وإنها لتعلم أن هذا الرجل مثل غيره ممن سبقوه، ونسيت أسماءهم... ولهذا، فهى لا تعده بشىء، ولا تقطع

لـه عهـدا، واكتفـت بـأن قالـت لـه:

– أشـكرك يـا سـيدى، ولكـن لابـد لى مـن التفكـير فـى الامـر الـذى تعرضـه علـىَّ، فأنـا أرغـب قبـل كل شـىء فـى معرفتك معرفـة كاملـة، إن الحـب لا يجمـع بـين القلـوب إلا بعـد تفكـير عميـق... فدعنـى أفكـر.

واغتبـط صاحـب المطعـم لسـماع هـذه العبـارة: « الحـب يجمـع بـين القلـوب « وعلـل نفسـه بأيـام سـعيدة مقبلـة، وسـاعات لذيـذة يقضيهـا مـع الفتـاة الحسـناء.

وكانـت الشـمس قـد غربـت، فسـألها عـن اسمهـا، فقالـت: «اسمـى الفونسـين بليسـى، فـى الخامسـة عشـرة مـن العمـر، واعمـل فـى مصنـع للقبعـات».

وألح الرجـل طالبـا موعـدا آخـر، فاتفقـا علـى أن يتقابـلا يـوم الأحـد التـالى فـى نزهـة مثـل هـذه ، بإحـدى ضواحـى باريـس.

وفـى هـذا الموعـد وافتـه الفونسـين مرتديـة ثوبـا غـير الـذى كانـت ترتديـه فـى المـرة الأولى وعلـى رأسـها قبعـة جديـدة لم تدفـع ثمنهـا أيضـا مثـل القبعـة السـابقة، ثـم تأبطـت ذراعـه ففاحـت منهـا رائحـة زكيـة أسـكرته، وسـألها عـن المـكان الـذى تريـد الذهـاب إليـه فقالـت: « إننـى لا أعـرف ضاحيـة رومانفـل فهـل لـك أن ترافقنـى إليهـا؟».

ورضى الرجل مسرورا، وركبا معا إلى هناك عربة صغيرة يجرها جواد واحد.

وكانت نزهة شبيهة بالنزهة التى سبقتها فى حديقة سان كلو، ولم يكثر صاحب المطعم من الكلام، بل ساير الحسناء صامتا لأنها كانت تسير صامتة، واكتفى بالعطر الفائح منها، وبالابتسامة الساحرة المرسومة على ثغرها، ويضغط يدها من وقت إلى آخر، وكانت الحديقة أيضا مزدحمة بالمارة بعضهم يمشون على أقدامهم، وبعضهم يركبون الحمير أو الخيول أو العربات، ومعظمهم شبان وشابات... فنظرت إليهم الفونسين فى شىء من الأسى، لقد كانت تؤثر أن يتأبط ذراعها فتى من أولئك الفتيان الأشداء، لا شيخ فى الستين بطىء السير فاتر الحديث،.. وكانت تفضل أن تحادث أحد أولئك الشبان فى موضوع يشغل الأذهان فى الحى اللاتينى، أو فى آخر قصة غرامية ظهرت فى المكاتب، لا إلى صاحب مطعم يحدثها عن ألوان الطعام والحلوى.

ولكن، هكذا قضت الأقدار، وهكذا شاءت المصادفات، فعليها أن ترضى بالمقدر وتغتنم المصادفة.

ونظرت الفونسين إلى الرجل نظرة أدرك معناها.. إن الحسناء جائعة، تود الدخول إلى هذا المطعم الأنيق.. المسمى «توريزيه» الذى يؤمه ذوو المقامات العالية والثروات

الضخمة... ولا سبيل إلى رفض طلب لالفونسين الساحرة.

وجلس الاثنان إلى مائدة منعزلة، وما شربت الحسناء كأسها الأولى حتى اصطبغ وجهها بلون الورد، ولمعت عيناها، ونضح جبينها بقطرات من العرق، فأزاحت ثوبها عن كتفيها، فبدت للشيخ الواله بشرة جسمها الناصعة الصافية، فلم يتمالك نفسه، وطبع على عنقها قبلة عنيفة حارة.

وأقبل الليل، فأشعل القرويون المشاعل وجعلوا يرقصون تحت الأشجار وحول المطعم، وخرج رواد المطعم للتفرج عليهم أو لمشاركتهم الرقص، واقترب شاب من أولئك القرويين، قوى العضلات، طويل القامة، حاد البصر، وأخذ الفونسين من يدها، وطوق خصرها بذراعيه، وانطلق يراقصها وسط الحلقة وصاحب المطعم رقيق الحسناء ينظر إليهما دون أن يجرؤ على الاعتراض.

وانتهى الرقص، واستراح الموسيقيون برهة، فأعاد الشاب الحسناء إلى مكانها، والتفت إلى صاحب المطعم وقال:

– يا سيدى، أرجو أن تسمح لى بأن أرقص مع ابنتك رقصة أخرى.

وكانت هذه الكلمات كافية لحمل الرجل على النهوض والانصراف، وخرجت الفونسين معه آسفة على الفرصة التى

تفوتها، مفكرة فى ذلك الشاب الذى علقت بها نفحة من أنفاسه.

وعاد الرجل بالمرأة إلى باريس، وظل شبان القرية يرقصون على ضوء المشاعل فى حديقة رومانفيل.

★★★

واستأجر صاحب المطعم منزلا مفروشا حلت فيه الفونسين، ووضع فى خدمتها امرأة خبيثة كانت تسترق السمع من خلال الأبواب والسجف، وتحصى على سيدتها كل حركة وكل سكنة، أما الفونسين، فقد رضيت بما قسم لها إلى حين، وعللت نفسها بأن هذا العاشق الكهل ليس إلا مرحلة أخرى نحو مراحل أحسن وحالة أفضل.

إنها تظل نائمة فى سريرها طوال ساعات الصباح، وقد زايلها القلق والاضطراب ولم تعد تفكر فى متاعبها لأن الرجل ينفق بلا حساب، ويجيب كل مطالبها بلا تردد ولا جدال، ولكن لا يؤم المنزل الذى تقيم فيه كل يوم، وهذا – فى نظر الفونسين – من حسن حظها؛ففى أثناء الليالى التى تقضيها وحيدة فى بيتها، تنصرف إلى المطالعة فتقرأ الكتب التى تستعيرها من المكتبة المجاورة للبيت...

وفى أثناء ترددها على المكتبة، كانت تلتقى برجال وشبان مشهورين وخاملين، وكانت تقرأ أقاصيص المغامرات

الغرامية التى تنتهى بالموت أو الانتحار أو المبارزة، وتعجب بأبطال تلك الروايات وتتمنى أن تتاح لها الفرصة للقاء أمثالهم فى أيامها المقبلة.

أما الرجل الذى تعيش الآن فى كنفه، فإنه يضع على رأسه فى الليل قبعة من القطن اتقاء للبرد، وتفوح منه رائحة الطعام الذى يقدمه لزبائنه فى النهار، ولم يكن فى هذا ما يثير فى نفس الفونسين عاطفة حب أو احترام للعاشق المتيم الذى جاوز الستين، ولهذا فهى تتحمل ملامساته، ولكنها تفكر فى غيره

– تفكر فى العاشق الشاب الثرى الذى تخبئه لها الأقدار.

أراد فى بادىء الأمر أن يحبسها فى المنزل ويمنعها من الخروج، وعهد إلى الخادم مراقبتها والتجسس عليها ولم يكن يسمح لها بالخروج إلا برفقته، أو بالذهاب وحدها إلى أبعد من المكتبة المجاورة، ولكنه عدل عن ذلك فيما بعد، أمام تظاهرها بأنها راضية سعيدة، فأراد أن يرى الناس ذلك الكنز الذى أنعمت به عليه السماء، وجعل يخرج معها إلى الأماكن العامة فشاهدهما الناس فى المسارح حيث تعرض الروايات الغنائية، وفى الحدائق حيث تمرح الغانيات اللاتى تفتتن بهن باريس، وفى المقاهى حيث يجلس الأثرياء لتناول الشاى أو المشهيات، وفى الحفلات

الراقصة حيث يلتقى الجمال بالمال، والأناقة بالشباب.

وكانت الفونسين تؤثر الذهاب إلى ملهى «برادو»، ولكن هذه الحياة لم تكن لتروق لها، وتشبع ظمأها، وتحقق لها أمانيها، فهى تتململ طول النهار، وتحتمل هذه الرقابة الشديدة القاسية على كره منها، آملة أن يأتيها الفرج فى يوم قريب.

إنها مرحلة لابد من اجتيازها فى مأمن من العوز والفاقة، وصاحب المطعم هذا ينفق المال ولا يتردد أمام أية تضحية فى سبيل الحسناء.

إنه يخرج معها إلى الحفلات الراقصة، ولكن ينام على المنضدة ويحلم بألوان الأطعمة التى سيقدمها لعملائه فى اليوم التالى، وفى أثناء ذلك ترقص الفونسين مع أناس لا تعرفهم، ثم تعود فتجد الرجل نائما وعندما يستيقظ، يلتفت إليها من خلف نظاراته ويقول مستفهما :

«أمسرورة أنت يا غزالتى؟».

إنها لا ترفض لأحد من الراقصين طلبا، ولكنها ترقص بدون أن تشعر بلذة فى الرقص، بالرغم من تزاحم الشبان عليها وتفننهم فى التحبب إليها ومغازلتها والتغنى بمحاسنها، إن كل ذلك طارىء عابر لن يدوم، وهذا الرجل النائم على المائدة ينفق ماله عليها ولكنه يضايقها ويزعجها.

وفى هذه الليلة، طلب إليها شاب ذو شعر أشقر وعينين زرقاوين وبشرة وردية، أن ترقص معه كما رقصت مع غيره، فأجابته إلى طلبه كما أجابت الآخرين، ولكن هذا الشاب جميل كأنه رب من أرباب الإغريق، وهو فى العشرين من العمر، يرتدى ثوبا على الطراز الإنجليزى وحذاء لامعا، وفى يده قفاز أصفر.

ولم يرفع الفتى عينيه عن عينيها لحظة واحدة طول رقصهما، وكانت رائحة المسك تفوح منه، وتذكرها برائحة ذلك النبيل الشاب، الذى قبلها وأعطاها قطعة من الذهب فى الغابة.

إنها ترقص وتشعر فى هذه المرة بلذة لم تعرفها من قبل، إنها مرتاحة إلى الالتصاق بصدر هذا الشاب المتأنق البهى الطلعة، ثم مدت يدها المرتعشة وتناولت بطاقته التى قدمها لها فى نهاية الرقص، راجيا أن تسمح له بمقابلتها مرة أخرى، فى يوم قريب.

ونظرت إليه وهو ينصرف رافعا رأسه، بعد أن ارتدى معطفه الثمين الذى حمله إليه أحد الخدم فى إجلال ملحوظ.

وهنا سألها عشيقها العجوز:

– من يكون هذا الشاب؟ إننى لا أحب هؤلاء المتحذلقين، وهذا الشاب لا يعجبنى... من هو؟

فأجابت دون أن تبدى اكتراثا :

– لا أعرفه... وقد نسيت اسمه؟

ولكن بطاقته كانت فى طى ثوبها.

وبعد عودتها إلى المنزل، عندما استغرق صاحب المطعم فى النوم، تناولت البطاقة وقرأت الاسم : «دوق دى جيش» ثم تمتمت قائلة لنفسها:

« دوق ؟.. هذا الشاب دوق من الأشراف؟». وارتسمت على شفتيها ابتسامة راضية وهى تطفىء المصباح.

obeikandl.com

الفصل الثانى

ذات العشاق السبعة

غانية ممشوقة القد، فاتنة الطلعة، لطيفة ظريفة نحيفة، كأنها روح تسعى على قدمين، تبدو أمام الناس كل يوم فى أربعة أثواب أو خمسة، وفراء لكل ساعة من ساعات النهار أو الليل، وحولها مائة من المعجبين الراكعين المتوسلين، تلك هى» الفونسين بليسى «التى تكتب اسمها بصعوبة، والتى كانت بالأمس فتاة خاملة مجهولة من الجميع.

إنها اليوم عشيقة الدوق اجينور دى جيش، وهو مفتون بها حتى العبادة، بل حتى الجنون، وباريس كلها تتطلع إلى هذه الغادة الفاتنة، التى لمعت فجأة فى سماء المجتمع فدانت لها الرقاب وانحنت الرؤوس.

انها تسكن المنزل رقم ٢٨ بشارع مونتابور، الذى يحمل هذا الاسم تخليدا للمعركة التى انتصر فيها الفرنسيون على الأتراك فى جبل الطور، يوم كانت حملة منهم ماضية من مصر إلى الشام بقيادة نابوليون.

لقد ملأ حياتها الترف والبذخ، وهى اليوم تعرف أنواع المساحيق والعطور وتستعمل أغلاها وأجملها، وحولها خادمات مدربات يفهمن رغباتها بالإشارة، ويصدعن بأمرها غير متوانيات.

لم تكن معاشرتها للدوق الشاب أمرا يسيرا بادىء الأمر، فقد أرادت أن تحب ذلك الشاب الجذاب كما تحب كل امرأة رجلها الذى اختارته، وأن تكون حياتها بجانبه حياة عشيقة مع عشيقها، ولكن الدوق دى جيش أفهمها أن المجتمع الباريسى الراقى يتطلب غير هذا، وأن هناك قواعد وأنظمة وتقاليد لابد من اتباعها والسير عليها، فجاءها بمن يلقنونها أصول الحركات والسكنات فى كل مكان تظهر معه فيه، وكان أولئك الأساتذة يزورونها ويمثلون أمامها الأدوار التى يجب عليها أن تعيد تمثيلها أمام الناس فتعلمت منهم كيف تسند يدها إلى ذراع رفيقها، وكيف تمشى، وكيف تصعد السلالم، وترد التحية بالإشارة، وكيف تنظر إلى هذا الأمير أو ذلك الدوق أو الكونت، وتعلمت أيضا كيف تجلس عشيقة رجل نبيل مع عشيقها على المائدة فى المقاهى الراقية وكيف تضع يدها على حافة المنضدة، أو ترد التحية وهى مارة بعربتها فى ميدان الشانزليزيه أو غابة بولونيا.

وبعد أن أتمت مرحلة هذا التعليم، جاءها الدوق بأساتذة آخرين عهد إليهم تعليمها الكتابة، والعزف على البيانو

والآلات الوترية، والرقص مع النبلاء، وغير ذلك من مقتضيات حياتها الجديدة فى البيئة التى انتقلت إليها، وهى جد مختلفة عن البيئات التى عرفتها من قبل.

وأقبلت الفونسين فى سبيل إتقان ما أراد لها عشيقها أن تتقنه، فلما استوثق الدوق دى جيش من أن الحسناء أصبحت أهلا له، وصارت جديرة بأن تحمل لقبها الجديد: «عشيقة الدوق» خرج معها للمرة الأولى وطاف بها على دور الأزياء، فاختار لها أحدثها وأجملها وأغلاها.

وهكذا صارت الفونسين تلك القروية الصغيرة البائسة غادة باريسية هيفاء، وكانت تميل إلى اللونين الأبيض والأسود، فكلف الدوق صانعات الأزياء أن يبتكرن لها من الثياب ما يتفق وذوقها وميولها، ولم يكن يحجم عن الإنفاق عليها بكل سخاء فى كل ما يزيدها جمالا وبهاء وأناقة.

ثم أخذ يخرج معها للنزهة فى الشوارع الكبيرة والمقاهى والملاهى المشهورة، وصحبها ذات يوم إلى مقهى رافلاج لحضور الحفلة الساهرة المعروفة بحفلة الأسود، وهنا رآها للمرة الثانية الشاب نستور روكيلان، وكانت مسندة يدها إلى ذراع الدوق دى جيش، الذى حمل فيما بعد لقب دوق دى جرامون وأمير بيداش، ووراءها خادم يحمل نقابها، ولم تعرفه هى حين رأته، لكنه عرفها وكتب عنها فى

مذكراته حينذاك قائلا : «إنها امرأة جميلة بديعة حقا».

وكانت تقلد عشيقها الدوق فى أحاديثه مع الناس، وفى صمته وجلوسه ووقوفه، وتقبل منه مرتاحة راضية شاكرة جميع ملاحظاته، لأنها أرادت لنفسها الكمال فى حرفتها الجديدة كما أراده لها عشيقها المتيم.

ثم أخذت تقيم المآدب الحافلة فى دارها الرحبة الضخمة، وتدعو إليها أشهر رجال باريس فيلبى الجميع دعوتها شاكرين، ويهنئون الدوق دى جيش على حسن اختياره، متمنين له بقاء وشائج الحب التى وصلت بينه وبين هذه العشيقة الساحرة الباهرة.

إنها بارعة فى كل شىء، بصيرة بكل ما يجب أن تصنعه سيدة راقية فى بيتها حين يفد إليها الزائرون، تقدم لهم المرطبات فى شهر يونيو، والخمر فى شهر ديسمبر... أما اطلاعها فقد اتسع نطاقه وشمل جميع المسائل التى يتحدث عنها الباريسيون، فهى تبدى رأيها فى قضية مدام لافارج، المتهمة بدس السم لزوجها، وهى تنادى عشيقها قائلة له : «مسيو دى جيش» أو «يا صديقى العزيز» ولكنها لا تناديه أبدا باسمه «اجينور». فإن هذا يخالف التقاليد والعرف والتربية الحسنة.

ولم يمض إلا قليل حتى أصبح بيتها فى شارع مونتابور ملتقى صفوة الباريسيين، من النبلاء ورجال الفكر والقلم، والمشتركين فى حفلات الأوبرا، وكبار التجار الذين يعرضون عليها التحف النفيسة والسلع الغالية، وجميع الشبان الذين يبتكرون الأزياء ويصنعونها ويروجونها فى العاصمة المرحة، وهؤلاء عرفوا باسمهم الانجليزى»داندى»، فأطلق عليهم هذا الاسم فى جميع اللغات: إنهم يقضون أوقاتهم كلها، نهارا وليلا منهمكين فى اختيار أزيائهم، والاختيال بها فى الطرقات، وحفلات السباق وغيرها، ولا هم لهم إلا الاستمتاع بمباهج الحياة، والتحدث عن الناس، وتناقل الأخبار والنوادر والنكات، وإطلاق الشائعات عن الملك لويس فيليب الذى يكرهونه جميعا بلا استثناء.

ولهؤلاء المتحذلقين من « الداندى « أندية خاصة يغشونها دون غيرهم

ولهم أيضا مجتمع خاص يعيشون فيه كإنهم طائفة مستقلة بعاداتها وأحاديثها وازيائها وأساليب حياتها

وقد تزوج بعض أولئك «الداندى» الباريسيين نساء قمن فى المجتمع بأدوار أدبية وسياسية كبيرة، وكانوا حين يقصدون المسارح الكبرى، لمشاهدة التمثيل، يرتدون ملابس مزركشة ويتختمون بالجواهر ويرصعون صدورهم باللآلىء...

إن الناس تشوقهم رؤيتهم فى ندوات العاصمة كما رؤية الغيد الحسان، وليست الفونسين بليسى أقل اهتماما من الناس بأولئك الشبان والرجال من الدانـدى، لأنها تدرك أن صداقتهم تساعدها فى بلوغ المكانة التى تحلم بها.

وقد عرفت بعضهم معرفة وثيقة، وصاروا من أصدقائها الجدد، كما صار من هؤلاء ألاصدقاء، الشاب نستور روكيلان، واللورد سيمور الإنجليزى المعروف فى عالم الرياضة والمقيم بباريس، وروجيه دى بوفوار الذى اشتهر بارتدائه أبدع القمصان، وأرثور برتران الذى امتاز بين زملائه بقفازه الأبيض، والبرنس توفياكين الذى يقيم ولائم لا مثيل لها فى فرنسا كلها.

أما الدوق دى جيش عشيقها فكان يمرح كالطاووس بين أولئك الشبان والرجال، ويباهى بأن لديه أبدع امرأة فى باريس، على أنه لم يكن يعتبر حب الفونسين الحسناء أمرا ينبغى الاحتفاظ به إلى النهاية، بل كان يعدها بمثابة لعبة فى يده يتسلى بها ويلهو ما وجد لذة فى ذلك، ثم يطرحها جانبا اذا أخذ غرضه منها أو ضاق ذرعا بجوارها، ولكن كان يجهل حقيقة ما انطوت عليه نفس الحسناء، فقد أخطأ تقدير مطامعها وتفهم آمالها، ولهذا خانته الفونسين عندما سنحت لها أول فرصة لذلك.

وقد حدث هذا على أثر خلاف بسيط كتلك الخلافات التى تحدث بين العشاق، ثم تنتهى بقبلة ويسدل عليها الستار، غير أن الفونسين فى هذه المرة أرادت أن تجعل الخلاف جديا، وأشارت إلى الباب إشارة تعلمتها من الأساتذة الذين دربوها بأمر منه هو نفسه، وقالت له بصوت جهورى:

– اخرج يا سيدى؟

وفوجىء الدوق بهذه الحركة، ولم يسعه إلا مغادرة القاعة ولكن لم يغادر الدار، بل لزم حجرته فيها، على أساس أن نبيلا رفيع المقام مثله لا يعقل أن يطرد من بيت امرأة ينفق عليها ، وأنها لابد نادمة على فعلتها ساعية إلى استرضائه.

ولكنها استمرت فى مقاطعته والامتناع عن مقابلته، وحدث بعد ذلك أن لقيها ذات يوم فى شارع الشانزليزيه، وكانت مستقلة عربة جديدة يجرها جواد مطهم، وبجانبها رجل يعرفه هو الكونت دى مونجيون، وتوقعت هى أن تثور الغيرة فى صدر الدوق، وأن يحاول إزعاجها فى نزهتها مع الكونت، ولكن دى جيش لم يزد على أن رفع قبعته وابتسم لها فى رقة وتلطف، وكان لهذا المسلك أثره فى نفسها، وسرعان ما عادت إلى سيرتها الأولى معه معجبة بذلك المسلك المهذب الرقيق.

وكان الكونت دى مونجيون قد أخذ بجمال الفونسين ورشاقتها وخفتها، فصرح لها بأنه يضع ثروته كلها رهن تصرفها، وابتاع لها تلك العربة الجديدة الفخمة، وكلبا ثمينا من نوع نادر، ومجموعة كبيرة من الثياب والجواهر، ولكنه لم يكد يبدأ الاستمتاع برفقتها، حتى فوجىء بانصرافها عنه وعودتها إلى الدوق دى جيش من جديد، وأشد ما حز فى نفسه أنه رآها فى اليوم التالى، تتنزه فى العربة التى أهداها إليها، وبرفقتها كلبه الثمين، والدوق دى جيش.

وضحك مونجيون وقال لصديق كان يرافقه: « إن غريمى يسحق أن يدعى إلى المبارزة من أجل هذه الفعلة الشائنة».

فأجاب الصديق فى سخرية : ولماذا لا تقول إن السارق قد أصبح مسروقا، فقد سلبته عشيقته فاستردها منك مع هداياك الكثيرة،وانتهى الحادث بضحكة رنانة.

ذلك هو المجتمع الباريسى فى ذلك العصر ، وتلك هى عادات الأثرياء والمتحذلقين من الداندى، فالمرأة عندهم دمية تعبث بها الأهواء والظروف والمصادفات والفونسين تدرك هذا، ومن أجله اعتنقت مبادىء الداندى وتقاليدهم، فأصبحت تعد الرجل دمية تؤخذ أو تلقى جانبا كما تملى الأهواء وتشاء الظروف والمصادفات.

وقد اختفى دى جيش من طريق الفونسين غير مرة، ثم عاد إليها فهو فى نظرها أجمل أولئك الرجال الحائمين حولها، المتسابقين إلى إرضائها وقد حفظت ذكراه طوال حياتها وبقى دى جيش يذكرها حتى صار شيخا أثقلت السنون كاهله فكان اذا تحدث عنها أمام أصدقائه قال : »إن الفونسين بليسى أجمل وأظرف امرأة بين النساء الكثيرات اللواتى عرفتهن فى حياتى وتركن فيها أثرا... كانت طفلة كبيرة وكانت لها عينان ساحرتان».

★★★

كم عدد العشاق الذين صحبوها أمدا طويلا أو ساعات عابرة! انها لمسألة حسابية شاقة حقا، فقد أغدقت الفونسين محاسنها وعواطفها على عدد من الرجال يصعب إحصاؤه، فمنهم النبلاء ومنهم رجال الأعمال، ورجال الأدب والفنون الجميلة، ومنهم أولئك الدانـدى الذى تحدث التاريخ عن أناقتهم، ومنهم رجال الجيش بأزيائهم العسكرية البديعة، وكثير غير هؤلاء وأولئك، كانت تلك الغادة اللبقة البارعة الإغواء توقعهم فى شباكها، وتلعب بهم كما تلعب بدمية فى يدها، فرجال الجيش كانوا يطردون النبلاء، والنبلاء كانوا يطردون التجار، والتجار كانوا يطردون الأدباء والفنانين، وهكذا استحال منزل الفونسين، حينا من الدهر إلى ما يشبه

النادى أو المسرح، يلتقى فيه عشرات من العشاق والمعجبين والمترددين، فإذا ما خرجت الحسناء تتنزه أو تشاهد رواية جديدة، فإن حاشية من أولئك المفتونين كانت تتبعها خطوة خطوة، ولا تفارقها إلا عندما تأوى إلى فراشها، والفونسين لا ترق للجميع ولا تتلطف مع كل المعجبين، بل تزجر هذا أو تطرد ذاك أو تخاطب أحدهم خطاب السيدة للخادم، أو تشتمه غير متورعة ولا وجلة، ولكنه لا يغضب، ولا يؤنبها، ولا يبتعد عنها، بل يتقبل منها كل شىء راضيا صاغرا.

إنه لمجتمع عجيب حقا ذلك المجتمع الذى سيطرت عليه هذه المرأة الساحرة التى قال أحد المؤرخين الذين دونوا سيرتها – وهو الكاتب فيلموسان:

– إنها اتخذت ذات مرة سبعة عشاق مرة واحدة فى وقت واحد، وكثيرا ما فاخرت الفونسين فى أحاديثها وكتاباتها فى ذلك الحين بأنها أخضعت لسلطانها كل البارزين فى ذلك العهد من الرجال والفتيان فى باريس.

عهد جديد واسم جديد

انتقلت الفونسين من دارها فى شارع مونتابور إلى دار أفخم وأرحب هى الدار رقم ٢٢ فى شارع انتان، وغيرت اسمها منذلك الحين فصارت تدعى «مارى دوبليسى»، ومضت تنفق بلا حساب، وتحيا حياة أصحاب الملايين.

وكان أبوها قد مات سنة ١٨٤١، وكذلك ماتت أمها بعيدة من البلدة ولم يعرف أحد كيف ماتت، على أن الفونسين بقيت على علاقة حسنة بخالها «مينيل» واستعانت به فى بعض شئونها، كما بحثت عن أختها دلفين وصارت تمدها بالمال من حين لآخر، وبقيت تبادل أختها وخالها الخطابات، ويغمر الحبور قلبها كلما حدثاها فى خطاباتهما عن الأحوال فى بلدة نونان، وعن اشتياق القرويين هناك إلى الحسناء الصغيرة الفونسين التى طالما هربت من أمها، ومضت تلعب معهم حافية القدمين فى الطرقات والحقول.

على أنها منذ مات والداها، بدأت تشعر بأنها توشك أن تلحق بهما، وكانت تردد بين حين وآخر: « إننى تعبة إننى أحث الخطى إلى القبر »، ثم لا تكاد تتلفت حواليها وترى تزاحم المتملقين والمعجبين المحيطين بها، حتى تضحك

لهذا الكونت، وتمازج ذلك الدوق، وبذلك تنسى ما كانت فيه وتذهب عن ذهنها تلك الأفكار السوداء حتى حين.

إن الفونسين، أو مارى دوبليسى كما سمت نفسها، تميل إلى الانغماس فى الترف والنعيم، ولكنها مع ذلك لم تسلم من الأحزان والهموم، ولا شك أن حياتها الصاخبة، بما توافر فيها من أسباب اللهو والتسلية، قد جعلتها تنسى أحزانها وقلقها إلى حد بعيد، ولا سيما أنها كانت تحب التنقل والأسفار، وقد ذهبت مرة إلى ألمانيا مع صديق عاشق، وذهبت مرارا إلى المدن المشهورة بمياهها المعدنية، فأثارت هناك إعجابا لا يقل عما أثارته فى باريس.

وولدت طفلا كتمت خبره وأودعته لدى أناس تربطها بهم وشائج قرابة مبهمة، وكانت أحيانا تقصد إلى قرية نونان لرؤية أختها، واستعادة الذكريات فى ملاعب طفولتها ومراتع صباها فى تلك القرية.

وكانت القرويات يهرعن إليها يحيينها فتقبلهن على الخدود، وحاولت فى كل مرة أن تحمل أختها دلفين على أن تسافر معها إلى باريس، وكتبت إليها مرارا قائلة: «لو سمعت نصيحتى، ورأيت العاصمة مرة واحدة، لما فكرت فى العودة إلى نونان أبدا». ولكن دلفين كانت تؤثر البقاء فى بلدتها الصغيرة مع خطيبها

القروى الذى اختارته من عمال المزارع ليكون زوجا لها.

إن دلفين تحب حياة الأسرة فهى لذلك تخشى باريس، وتتهيب ضوضاءها، وتؤثر حالتها الخاملة وبلدتها الصغيرة.

وعندما سافرت مارى دوبليسى إلى ألمانيا، حملت معها جواز سفر دونت فيه هذه البيانات :

الاسم: مارى دوبليسى

الطول: متر و ٦٥ سنتيمترا

الشعر : كستنائى

الأنف : منتظم

الذقن : مستدير

الوجه : مستطيل

العينان: سمراوان

الفم : صغير

وذكر فى الجواز أيضا أن مارى دوبليسى ولدت فى نونان، وكان اسمها الفونسين بليسى ثم غيرت اسمها فى باريس، وكانت المانيا حين سافرت إليها تجتذب إليها أفئدة الكثيرين بما اشتهرت به من المناظر الطبيعية الرائعة،

obeikandl.com

وكثرة الشلالات، والقلاع والقصور التاريخية التى تغنى بها الشاعر فيكتور هوجو فى قصائده.

كما كانت ألمانيا حينذاك مشهورة بحسانها الشقراوات اللائى لا يتمنعن على غزل عاشق ولا يصدفن عن تنهدات ولهان.

ولكن مارى دوبليسى تشعر بألم فى صدرها، وينتابها أحيانا سعال متقطع لا ينتبه إليه أحد من عشاقها الكثيرين ولا يسألها عنه أحد منهم إلا سؤالا عابرا فى سياق الحديث عن الأزياء الجديدة أو النزهة المقبلة.

وكان التعب يبدو فى وجهها أحيانا، فيسألها من يكون معها :

– أتعبة أنت يا صديقتى ؟

فتجيب مارى ضاحكة :

– كلا، كلا.. لا شىء غير برد بسيط لا أهمية له على الإطلاق.

ثم تعود أدراجها إلى البيت لتفكر فى أمرها، أو تذهب للبحث عن التسلية والنسيان فى أحد الأندية أو الملاهى، وكان الخدم فى المحال العامة يهرعون إلى استقبالها فرحين مغتبطين لأنهم يعرفون أنها تجر وراءها دائما جيشا من العملاء الأسخياء، وأن المكان الذى تجلس فيه يزدحم بالأثرياء ومشاهير الكتاب والفنانين والرياضيين وغيرهم من المعجبين،

وكانت حديقة تيفولى من الملاهى التى تفضلها مارى دوبليسى على غيرها، لأن الشبان الأثرياء يمارسون هناك صيد الحمام.

وفى حديقة تيفولى، كانت تلتقى بأشخاص عرفتهم حديثا، وارتاحت إلى معاشرتهم، كالكونت جى لاتور، ومالیبورن، وشاتوفيلار، وأسكندر دوماس الابن، الكاتب الروائى الذى سار على نهج أبيه الشهير، وأنشأ لنفسه فى ميدان الأدب والمسرح مركزا ممتازا، والذى كان حديثه الطلى يدخل السرور والبهجة على نفس مارى، وكان هؤلاء المترددون على حديقة تيفولى يرتاحون لمجالسة الغادة الحسناء ومبادلتها الآراء، ويشعرون بشىء من الكبرياء حين يظهرون حولها أمام الناس كأنهم خاصتها المقربون.

إن مارى دوبليسى صارت من النساء الشهيرات فى باريس، وباتت نساء الطبقة الراقية يتهامسن باسمها، ولا يخفين حسدهن، وغيرتهن على رجالهن منها، إنها جميلة يغيظهن جمالها، ممشوقة القد، حلوة الحديث ساحرة الابتسامة تثير الحقد فى نفوس الغيد الحسان اللائى بزتهن دلالا وشهرة وسيطرة على قلوب الرجال.

ان الغانيات كثيرات فى باريس، ولكنهن جميعا دون مارى دوبليسى شهرة وجمالا، ان « اليس أوزى» تكرهها لأنها انتزعت منها بعض عشاقها، و» لولا مونتيس» لا

تحبها لأنها تزاحمها وتتغلب عليها فى ميدان الغرام، وتحاربها الغانيات سرا ويتناولنها بألسنة حداد ويسخرن من نحافة جسمها قائلات:

- إنها هيكل عظمى يسعى على قدميه.

ومع ذلك، فالرجال يؤثرونها على غيرها من الغانيات الحواسد، إن البرنس بلجيوز لا يخرج إلا معها، وفيرون مدير مسرح الأوبرا يدعوها لترأس المآدب التى يقيمها فى مقهى باريس، والشاعر الفريد دى موسيه، الرقيق الشعور، المتأنق فى أشعاره وأزيائه على السواء، لا يرتاح لمجالسة غيرها من الغيد الحسان، واقتدى بالشاعر الشاب الجميل كثير من فتيان باريس، فأصبحوا ينظرون إلى مارى دوبليسى نظر الشاعر الغزل إليها، مشيدين بمحاسنها وظرفها فى صالونات باريس، وفى الأندية والشوارع والمسارح.

وهى تنفق بلا حساب وتنثر المال ذات اليمين وذات اليسار، غير عابئة بالغد، ولا ملقية بالا للأيام السوداء؛ فالمال فى نظرها قد وجد لكى ينفقه من يستحوذ عليه، لا ليدخره فى الخزائن، ثم إن المال الذى تنفقه ليس مالها، بل مال الذين حولها ويستجيبون لرغباتها.

انهم يدفعون بسخاء، وهى تنفق بسخاء أيضا.ومبتكرو الأزياء الجديدة يقلدون الأزياء التى ترتديها مارى، وبعد أن كانوا يعلمونها كيف تلبس، صاروا يتعلمون منها كيف يصنعون الأزياء للنساء الأخريات، لقد أصبحت مارى ربة الأزياء بعد أن تربعت على عرش الجمال، وصارت سيدة المجتمع الباريسى لا ينازعها منازع ولا تزاحمها امرأة.

وفى أثناء ذلك كله، كانت مارى دوبليسى تواصل الدرس والمطالعة، وتزود نفسها بكل ما يمكن أن يفيدها فى الحياة الجديدة التى اختارتها لنفسها، وصارت تكتب رسائل فيها من المعانى الرقيقة ما لم يكن يخطر ببالها قبل ذاك، وكانت توقع على رسائلها بكلمة واحدة هى اسمها الجديد.. «مارى».

وكذلك برعت فى العزف على البيانو، إلى حد أثار الدهشة والإعجاب لدى كثيرين من كبار الموسيقيين المقربين منها، وكثيرا ما ارتفعت الأصوات بالغناء مع عزفها الجميل فى قاعة الاستقبال بمنزلها.

وكثيرة هى الكتب التى كانت تطالعها، وكانت تقرأ كل نوع وكل أسلوب، ولكنها تفضل الروايات الرائجة، كروايات : والترسكوت، وأوجين سو، واسكندر دوماس الأب، الذى كانت معجبة بكتبه قدر إعجابها بابنه.

وعندما تجلس مارى دوبليسى فى مقعد وثير، أو تستلقى على فراشها بعد الظهر فإنها تطالع قصة تندمج فيها اندماجا تاما، وتعيش لحظات من الزمن مع أبطالها، فتخال أنها انتقلت من منزلها الهادىء إلى جبال وعرة، أو طرقات مقفرة، أو مروج خضر، أو قمم يكسوها الثلج، والفرسان أمامها يتراكضون فوق خيولهم ويبارزون خصومهم، والأمراء العاشقون يفرون بعشيقاتهم إلى أحضان الطبيعة بعيدين عن المدن وضوضائها.

ومن الكتب المحببة إليها أيضا قصة « مانون ليسكو» تلك الغانية التى ضحت بنفسها على مذبح الحب والوفاء، وتخال مارى وهى تعيد قراءة قصة مانون، أنها قد تصبح مثل تلك الحسناء، فتذهب إلى قاعات الميسر مع عشيقها، فيخسر ثم يكسب ثم يخسر من جديد، وتتخيل أيضا أنها تحب رجلا يشبه الفارس دى جريو عشيق مانون، وأنها تفر معه إلى العالم الجديد، إلى أمريكا البعيدة، حيث تقضى نحبها فيدفنها الحبيب بين الرياحين، ويبكى على قبرها، ويبقى ذكرها فى طيات صدره.

وتعود بها الذاكرة أحيانا إلى الماضى، فتتخيل نفسها عادت فتاة قروية نافرة فى مروج نونان وحدائقها وطرقاتها، يغمرها بالقبلات شاب لا تعرفه على كومة من الأعشاب فى اسطبل

المزرعة، صامتا لا يفوه بكلمة، وهى مستسلمة لقبلاته الحارة.

وتسبح مارى فى ذكرياتها، فتبتسم أو تعبس ثم تطوى الكتاب وتنادى وصيفتها لتساعدها فى ارتداء ثيابها، ولم يكن لها بد من الخروج، فهى وإن كانت ترتع فى بحبوحة من العيش بفضل العشاق الكثيرين الذين يتسابقون إليها، ويتزاحمون فى قاعات دارها، فقد كانت لا تعرف الراحة، بل تدفع ثمن البذخ تعبا لا ينقضى طول أيامها.

وهى تشعر برعشة متقطعة، والبرد يؤثر فيها إلى أبعد مدى، والسعال يعاودها، ولكن لابد من الخروج ولابد من تصنع الابتسام، ولابد من الرد على تحايا المعجبين بإشارة من اليد، أو بالتلويح بزهرة الكاميليا التى تحرص على حملها فى كل مناسبة، كأنما كانت تشعر بأن اسم هذه الزهرة الجميلة سوف يقترن باسمها فى المستقبل.

وحينما تفرغ من ارتداء ثيابها، وتهم بمغادرة المنزل، كانت تبتسم لوصيفتها وتقول لها: «سعدت مساء يا كلوتيلد... لا تنتظرينى الليلة، فإنى لن أعود إلا فى ساعة متأخرة».

الكونت دى باريجو

فى إحدى السهرات الطويلة، عرفت مارى دوبليسى شاباً قدر له أن يقوم على مسرح حياتها بدور كبير، وذلك هو الكونت إدوار دى باريجو.

كان فى الثلاثين من عمره، وسيم الطلعة، بديع القوام، حسن الهندام، ظريفا لبقا فى الحديث، يخاله من يراه فارسا من فرسان نابوليون.

على أنه برغم ذلك كان ضعيف الإرادة، سهل الانقياد، ترتاح لصحبته الغانيات لأنه ممن يسهل خداعهم والضحك عليهم، فهو يثور لأهون سبب، ويصدق كل كلمة تلقى فى أذنه، وتثقل كاهله ذكريات أسرته العريقة ومن أنجبتهم قبله من القواد العسكريين والنبلاء الذين شقوا طريقهم فى الحياة بحد السيف، وكان بعضهم من المقربين إلى الامبراطور نابوليون الأول وزوجته الأولى جوزفين، وقد ورث عنهم ثروة طائلة، ولا تزال عماته وخالاته على قيد الحياة، فى قصور يرجع تاريخها إلى القرن الثامن عشر...

وإدوار من رجال الجيش، وهل يمكن أن يصبح سليل أولئك القواد غير ذلك؟ إنه يحب مهنته هذه، وقد حارب فى أفريقيا، واشترك فى المعارك التى خاض الجيش الفرنسى غمارها ضد جيوش الأمير عبد القادر الجزائرى فى حرب الجزائر المشهورة، وهناك فى الجبال والصحارى، عرف الأخطار وعرف الجمال العربى فى النساء وفى الطبيعة على السواء.

وهو إلى ذلك عضو فى نادى سباق الخيل بباريس، حيث يلتقى أبناء أشهر الأسر الفرنسية العريقة، ولكنه لم يكن يميل إلى الميسر، ويؤثر قضاء وقته فى تبادل الاحاديث مع أعضاء النادى.

وقد عرف قبلها نساء كثيرات، وعاش مع بعض الغانيات الباريسيات وأنفق عليهن، وكن به فخورات، فى حين لم يكن هو يشعر نحوهن بأى حب حقيقى، على أنه ما كاد يملأ عينيه من مارى دوبليسى، حين عرفه إليها أحد رفاقه فى تلك السهرة حتى خيل إليه إنها شديدة الشحوب، ولاحظ أنها تلتحف بالصوف وتحاذر تيارات الهواء خيفة البرد، ثم سحرته ابتسامتها الوادعة الرقيقة حين قدمت له بيدها قدحا من نبيذ آستى، وتابع بنظراته خطواتها الرشيقة الوئيدة حين مشت إلى البيانو وجلست اليه مبتسمة، راعه نظرتها وابتسامتها، ورقص قلبه فرحا

وغبطة؛ اذ خيل إليه أنها وقعت فى حبه، وأن اتخاذها عشيقة له لن يكلفه الا ان يشعرها برغبته.

وفى اليوم التالى، أرسل إليها علبة من الحلوى وباقة من أزهار الكاميليا التى عرف أنها تحبها وتؤثرها، فأعطت مارى الحلوى لخادمتها، واحتفظت بالأزهار حيث زينت بها الدار كعادتها، ومع ثقته بنفسه، واعتقاده سهولة الحصول عليها، تردد فى مكاشفتها بشعوره نحوها، وكثيرا ما اقترب منها وفى نفسه أن يكاشفها بذلك الشعور، لكنه سرعان ما يتخاذل فيقف أمامها مبهوتا صامتا يتصبب العرق من وجهه باردا كالثلج، ويداه ترتجفان.

وواتته الجرأة ذات ليلة فخاطبها قائلا:

– مارى هل عرفت الحب فى حياتك؟

فضحكت ضحكة عالية، تبعتها نوبة من السعال، ثم غطت كتفيها بوشاحها ونظرت إليه بعينيها الضاحكتين، ثم قالت له:

– ماذا تقول أنت إذا أجبتك بأنى لم أعرف الحب بعد؟

فقال أدوار مسرعا:

– إذا كان هذا جوابك، فسأكون سعيدا جدا... نعم... سأكون سعيدا جدا.

فعادت هى تسأله : «لماذا تكون سعيدا ؟»، ونظرت إليه بطرف عينيها، وسكتت منتظرة ما يجيب به، ولكنه لم يجب بشىء، فاستطردت قائلة له وهى تشير إلى النافذة :

– إننى أختنق فى هذا الجو الذى ملأته سحب الدخان المتصاعد من سجائر الحاضرين، فهل لك أن تفتح هذه النافذة يا صديقى.

ولما ذهب إلى النافذة ليفتحها، نهضت هى أيضا وألقت نظرة على الزوار الذين يزحمون القاعة، وقد انهمكوا فى التعليق على الحادث الذى تناقلته الألسن فى اليومين الأخيرين بباريس، اذ رسم بعض الشبان المناهضين للملك لويس فيليب صورته على الجدران وراحوا يتمرنون على إطلاق الرصاص عليها.

وعاد إليها باريجو، ووقف يستمع معها لتلك التعليقات، ثم همس إليها قائلا:

– ما هذا الجنون، ولم كل هذا التعب والعناء، ليتركوا الملك وشأنه، إنه سوف يسقط عن العرش من تلقاء نفسه دون أن يسقطه أحد.

وذكر بعض الحاضرين اسم الملكة مارى اميلى زوجة الملك لويس فيليب، فتصورتها مارى امرأة جافة جامدة تجهل

كيف تتحبب إلى رعيتها، والتفتت إلى باريجو وسألته:

– أتظن يا سيدى أنها سعيدة فى حياتها؟

ولم يفهم هو عمن تسأله، إذ كان تفكيره منصرفا إليها هى، فتمتم قائلا:

« من تعنين يا سيدتى؟»

فقالت له : « أعنى الملكة مارى اميلى التى يتحدثون عنها؟ »

فقال على الفور: « إنها سعيدة اذا كانت تحب».

وهنا نظرت إليه محدقة فى عينيه، ثم قالت مبتسمة:

– آه... تحب ؟.. تحب ؟.. إن الحب وحده يشغل بالك الآن يا عزيزى... أرجو أن تغلق النافذة، ان الطقس بارد، ويداى مثلجتان، انظر.

ثم مدت يديها إليه، فأخذهما بين يديه وإذا هما خفيفتان ناعمتان، وبقى هنيهة يتأملهما معجبا، ثم رفعهما إلى فمه وطبع عليهما قبلة كلها حرارة وشوق ورغبة... وانطلق اسم الحسناء من بين شفتيه:

– مارى، مارى.

فتصنعت هى الدهشة، وسألته:

– ماذا حدث ؟.. ماذا بك يا سيدى؟

ومالت برأسها نحوه، وعضت على طرف لسانها بأسنانها الناصعة وحدقت فيه منتظرة جوابه. فأجاب دون تردد :

– إننى أحبك يا مارى.

فتشاغلت بالتدثر بوشاحها الصوفى، ثم رفعت رأسها اليه وقالت فى صوت هادىء عميق :

– آه.. حسن... أهذا ما كنت تريد أن تقوله لى، حسن جدا... ولكن أين مروحتى،.. هاتها، أرجوك، إنها هناك، أمام هذا التمثال الصغير.

وجاءها بالمروحة، ثم استأنف كلامه فقال لها:

– ولماذا لا أحبك؟

وسكتت مارى، ثم القت نظرة على بقية ضيوفها فى القاعة الكبيرة، وعادت تنظر إليه محدقة فى عينيه، ولم تنبس بأية كلمة، ولكن نظرتها وابتسامتها أغنتاه عن كل كلام.

عاشق غير معشوق

أصبح باريجو العاشق الأول لمارى دوبليسى منذ ذلك اليوم، ولكنها لم تكن تجد فيه ما يميزه من بين عشاقها الكثيرين فى الماضى والحاضر، وسرعان ما ضاقت بعشرته، وملت أحاديثه التى لا تتغير ، وحركاته وسكناته التى يكررها كل يوم وكل ليلة، على أنها بقيت تتحمله صابرة دون أن تفوه بكلمة، متظاهرة بالإصغاء إلى ثرثرته، بينما هى تفكر فى أشياء أخرى.

وحرص هو على أن يلازمها كظلها، وحاول أن يبهرها بالهدايا العادية التى يحملها إليها كل يوم، زاعما أنها مفاجآت. كما حرص على أن يدس لها فى كل طاقة من الأزهار يرسلها إليها حفنة من النقود. على إنها بقيت برغم ذلك متبرمة بلجاجته، وكثرة هداياه التافهة، وبقائه فى دارها بلا انقطاع.

ولم تكن تخفى عليه تبرمها بهذه المضايقات، وأوشكت ذات يوم أن تطرده ولكنه لم يكن يأبه لذلك، وسرعان ما يلقى بنفسه على قدميها مستعطفا سائلا:

– قولى لى الحقيقة.. الحقيقة كلها، ولا تخفى علىَّ شيئا، من ذا الذى تحبين من بين هؤلاء الرجال الذين يترددون إلى هذه الدار؟.. إنهم جميعا يعشقونك، وكل منهم يريدك لنفسه، ولكنك أنت تحبين الفريد دى موسيه، أليس كذلك، وتحبين أيضا روجيه دى بوفوار... وتحبين غيرهما... قولى لى... من هم عشاقك ؟.. سأكتفى بذكر أسمائهم ولا أغضب لذلك أبدا، وهى تسكت ولا تجيب، ثم تهز كتفيها، وتتركه فى القاعة وتدخل إلى حجرتها، فيرتمى على الباب ذاهلا مبهوتا، ويتمتم قائلا:

– مارى... مارى... إننى أحبك إلى حد لا يمكنك أن تتصوريه.

وفى بعض الأحيان، كانت تفتح باب الحجرة، ثم تقترب منه، وتداعب شعره الحريرى، وتسأله بلطف:

– أما انتهيت بعد !

وهنا كانت أمارات الفرح ترتسم على وجهه، ثم يبتسم، وينهض من مكانه، ويأخذ يدها فيقبلها، ثم يغادران الدار معا إلى حيث يذهب بها إلى مخزن « جون« ليبتاع لها فراء جديدا، أو إلى مخزن مدام « بلانات « لتختار لنفسها أحدث القبعات.

وكان باريجو يقف فى المخزن خلف عشيقته صامتا وقبعته فى يده، ولسان حاله يقول لمن يراه:

– انظروا، إن أشهر غوانى باريس ملك يمينى أصنع بها ما أشاء.

وهناك كانت تجلس أمام المرآة حيث تحيط بها البائعات، تاركات من عداها من العميلات الحانقات، بل كانت مدام بلانات نفسها تنهض من مقعدها وتشترك مع العاملات فى العناية بالغادة الحسناء، وتجرب لها بيدها قبعة بعد الأخرى، وهى لا تكف عن الترحيب بها وإطراء محاسنها، ثم تقول لها:

– انظرى يا سيدتى... هذه أحدث قبعة ابتكرتها بنفسى... وستكون فى هذا الشتاء أجمل ما تضعه النبيلات على رؤوسهن، فلتكن من نصيبك قبل سواك، وقد كلفتنى الرسوم التى عليها خمسمائة فرنك... وانا أعلم أن سيدتى تمتاز بذوقها السليم وتقدر بدائع الصناعة...وثقى بأننى لا أعرض هذه القبعة على كل سيدة تفد إلى هنا، فإن لكل ذوقه وتقديره ومركزه... إن هذه القبعة لجديرة بالدوقات والمركيزات، بل خليقة بالملكات المتوجات... وهى لا تلائم إلا تقاطيع الوجه الصبيح البهى، وجه مدام دوبليسى... الذى لا يصنع منه الله نماذج كثيرة... الوجه الذى يستحق أن يعبده الرجال ويسجدوا له... وهذه القبعة الأخرى مصنوعة

على طراز كانت مدام دى بارى تحبه، وهى تليق بك أيضا يا سيدتى لأن الأنامل التى أعدتها أنامل ساحرة.. وأنت أشبه بربة من ربات الجمال عند الأقدمين، ثم تلتفت مدام بلانات إلى دى باريجو سائلة إياه: «أليس كذلك يا سيدى الكونت؟» فيومىء برأسه موافقا، وتواصل هى كلامها مخاطبة عميلتها الجميلة قائلة:

– عندى قبعات أخرى كلها جميلة ومن أنواع مختلفة، من الطراز الإنجليزى، والطراز الإيطالى، والطراز الألمانى... ولكنها ليست جديرة بك يا سيدتى لأنك سيدة لا ككل السيدات، غير أن هناك قبعة ثالثة أود أن أعرضها عليك يا سيدتى، وهى من طراز سنة ١٧٦٠ ، فقد قررنا فى مجلس جمعيتنا الأخير أن نضع فى المستقبل قبعات من هذا الطراز.... واعذرينى إذا كنت أهمس بذلك فى أذنك، فإنى لا أريد أن يسمع غيرك ما أقوله لك عن قبعات الغد، وهذه ايضا قبعة رائعة الجمال... وهذه مثلها... نعم... نعم... سنرسل اليك هذه القبعات فى الحال يا سيدتى فى الحال... فى الحال... مع السلامة يا سيدتى... عفوا، عفوا... إنه يشرفنى كثيرا أن أخدم السيدة مارى دوبليسى، زينة باريس، مع السلامة يا جناب الكونت.

وتعود مارى إلى عربتها، فتصعد إليها، ويجلس باريجو بجانبها وترسل مدام بلانات صاحبة الحانوت قبعاتها الخمس التى اشترتها الحسناء ودفع ثمنها جناب الكونت، وهو سعيد بما حدث، سعيد إلى حد البكاء من الفرح.

★★★

وفى الشوارع، والميادين، تمر مارى بعربتها ومعها الكونت دى باريجو، فيشير إليها بعض المارة فى إعجاب قائلين: « مارى دوبليسى، » ويتساءل بعضهم: « من تكون هذه الحسناء» ولا يهدأ بالهم حتى يعرفوا اسمها.

وتذهب إلى بائع الفراء بعد بائعة القبعات. ويندفع نحوها مسيو جون مرحبا متملقا، يعرض عليها أنواعا وألوانا من بضاعته، ويلقى أمامها خطبة لا تقل طولا ولا تختلف عبارة عن خطبة مدام بلانات.

وبعد أن تبتاع الفراء والقبعات، وتقوم بنزهتها اليومية فى الشانزليزيه أو غابة بولونيا، تعود إلى دارها مع غروب الشمس، وهناك عند الباب، أو فى قاعة الانتظار، تودع الحسناء عشيقها الكونت الشاب بقبلة أو إشارة، فينصرف هادئا مطمئن البال، وتأوى هى إلى مخدعها.

قبلات بلا دموع

لم يكن الكونت باريجو يدرى أين يذهب بعد انصرافه من دار عشيقته فى تلك الساعة المتأخرة، ولا شك أنه يبقى بجانبها فى حجرتها، أو فى أية حجرة بالدار، ولكنها كانت تريد أن ينصرف، وليس فى وسعه أن يفعل غير ما تريد.

وفى أكثر الأحيان ، كان يطوف شوارع العاصمة حسبما تقوده قدماه دون أى تفكير، وقد يعرج على مقهى باريس فيجلس فيه ساعة وفى وجهه دلائل الانقباض والامتعاض، وكان أكثر رواد المقهى يعرفونه، ويدركون أنه متألم لخروجه مرغما من دار عشيقته الحسناء، فيرثى له بعضهم، ويسخر منه الآخرون.

وحدث فى تلك الليلة إلى صرفته فيها بعد شرائه لها الفراء والقبعات، أن جلس يتناول عشاءه فى ذلك المقهى، وكان فيرون مدير الأوبرا يتناول عشاءه هناك أيضا، ومعه بعض الشبان الذين يكثير ترددهم إلى مجلس مارى دوبليسى، فثارت الغيرة فى صدره، وضاف بالأعين التى ترقبه والألسنة التى تهمس باسمه فى جوانب المقهى، فعافت نفسه الطعام، واستبد به الشك والقلق وأخذ يسائل نفسه:

ترى هل فيرون عشيقها أم صديقها فقط؟ وهل أحبت هى أحدا من هؤلاء الشبان ؟.. ثم لم يطق صبرا على البقاء فنهض قبل أن يتم عشاءه، وانطلق عائدا إلى دارها، لكنه لم يجرؤ على الدخول، فوقف بالباب، وبقى كذلك ساعة أو أكثر دون أن يتحقق هل هى وحدها فى الداخل، أم أن معها أحدا ممن يترددون إليها، ثم انصرف أخيرا عائدا إلى داره مثقلا بالهواجس والأفكار السوداء.

إنه سعيد وتعس فى آن واحد، فهذه الحسناء إلى يعشقها ويسعده لقاؤها، تأبى إلا أن تشقيه بفراقها من حين إلى حين، وهو لا يقوى على فراقها ساعة واحدة، ولا يذوق النوم حين يعود إلى داره إلا ساعتين أو ثلاثا، ثم ينهض من فراشه، ليسارع إلى دارها، ويسعد بلقائها من جديد، ولكنه فى صباح ذلك اليوم تلقى من مارى دوبليسى رسالة قالت له فيها: «أنا آسفة يا صديقى. لا يمكننى أن أقابلك اليوم لأننى دعوت صديقتى زيليا لقضاء النهار معى، ونريد أن نبقى بلا رفيق ثالث حتى المساء».

ولم تكن هذه أول مرة طلبت إليه فيها ألا يزورها فى دارها لأنها فى انتظار صديق أو صديقة، أو قريب جاء من الأقاليم، أو لأنها تشعر بوعكة وترغب فى قضاء يومها فى سريرها، وكان هذا يثير غضبه وحنقه، لكنه

فـى أكثـر الأحيـان كان ينـزل علـى رغبتهـا مرغمـا ويقضـى نهـاره فـى داره أو هائمـا علـى وجهـه هنـا وهنـاك، كمـا كان صـبره ينفـد أحيانـا فيمضـى إلى دارهـا مرغيـا مزبـدا، حيـث يقتحـم البـاب، ثـم يأخـذ فـى تحطيـم مـا يصادفـه مـن الأوانـى والتحـف، ويلقـى بنفسـه أخـيرا علـى أحـد المقاعـد فـى حجـرة الاسـتقبال ويجهـش بالبـكاء بـين ضحـك الخـدم وسـخريتهم.

وكانـت هـى فـى مثـل هـذه الحالـة لا توليـه أى اهتمـام، بـل تمضـى فـى تصرفاتهـا وكأنـه غـير موجـود، فتغـادر غرفتهـا وتمـر أمامـه رافعـة ذيـل ثوبهـا، أو تجلـس فـى حجـرة أخـرى لتطالـع أو تعـزف أو تصـدر تعليماتهـا إلى الخـدم دون أن توجـه إليـه كلمـة واحـدة، بـل كانـت أحيانـا تغـادر الـدار تاركـة إيـاه فيهـا، وكان هـذا يثـير ثائرتـه أحيانـا فينهـض غاضبـا ويهـم بـأن ينهـال عليهـا بعصـاه أو يصفعهـا علـى خدهـا، أو يقبـض علـى عنقهـا بيديـه، ويصيـح بهـا قائـلا:

«أنسـيت أننـى اشـتريتك بمـالى، وأننـى أنفقـت عليـك بسـخاء، وأنـك ملـك لى مـا دمـت أدفـع ثمـن قبلاتـك».

ولكنـه كان يجـبن، ولا يفعـل شـيئا، ويرضـى لنفسـه بـأن يكـون لعبـة فـى يدهـا تلهـو بهـا كمـا تشـاء.

وكان أحيانا يخيل إليه أنه كرهها، ولن يعود إليها، فيخاطب نفسه قائلا: « إنها ليست جميلة بقدر ما يقولون، وهى لا تستحق هذه الشهرة وهذا الاهتمام، وغيرها من نساء باريس أحسن منها وأجمل وأروع أناقة وحسنا... إن عنقها مفرط الطول ولونها شديد الشحوب، وجسمها بالغ الهزال».

وطالما حاول أن يقنع نفسه بصحة ذلك، ولكنه كان لا يلبث قليلا حتى يعدل عن رأيه، ويبقى على تعلقه بحبها وإعجابه بحسنها.

كانت ابتسامة منها تكفى لإخماد ثورة غضبه، أيا كان سبب الغضب، وكان البشر يغمره فيشعر بأنه يسبح فى فيض من النعيم حين تناديه بصوتها الموسيقى: «إدواردو، » ثم تضيف قائلة : « أليس هذا هو اسمك باللغة الإيطالية؟» وتقدم له فمها، فيقبلها ناسيا فى قبلاتها كل شىء.

وقد تتعمد هى إثارة غضبه وغيرته، ولكنها كانت لا تريد أن تقطع علاقتها به قبل أن تتخذ عشيقا آخر يتولى الإنفاق عليها... إنها لا تحبه ولكنها لم تعتزم بعد أن تتخلص منه.

نعم، إنها لا تحبه، بل تحتقره، لأنه يلقى بنفسه على قدميها إذا غضبت عليه، ويقبل ركبتيها طالبا العفو والغفران، ومهما تكن المرأة ساقطة طائشة فإنها تحتقر الرجل الذى

يستكين أمامها ويضعف إلى هذا الحد، وقد حدث مرة أن كان « إدوار» راكعا أمامها، يغمر قدميها بالقبلات ويقول لها:

– مارى.. مارى.. أتكرهيننى ؟

فأجابته بلهجة ملؤها الاحتقار : « نعم، أكرهك».

وهنا بهت العاشق المسكين، وأخذ يبكى بين يديها بكاء الأطفال، ونفد صبرها فى النهاية، وبرمت بهذا العاشق الذى لا يعرف لنفسه حقها، فقررت فجأة أن تسافر إلى إيطاليا التى تحبها وتشوقها رؤيتها، على أن تختار لصحبتها رجلا سواه.

وفطن إدوار إلى ما تضمره عشيقته، فجن جنونه، وتضاعفت أسباب الخلاف والشجار بينهما، وكانت مارى فى كل مرة تترك العاشق الصاخب وحده فى قاعة الجلوس وتدخل حجرتها، ولكنه يلحق بها، فتتظاهر بأنها نائمة فينتهرها صائحا مزمجرا، ويردد بلا انقطاع: « لا لا... لن تسافرى... لن أتحمل هذا... وإذا سافرت فإننى سأسافر معك، أو أتبعك إلى حيث تذهبين... كونى على حذر لأننى سأنتقم منك انتقاما رهيبا».

وفى الأندية حيث يجتمع إدوار بإخوانه فى السهر واللهو، جعل يتحدث عن السفر إلى إيطاليا كأنه مشروع

وضعه هو وسوف ينفذه مع حبيبته.

وأراد بذلك أن يسبق الحوادث ليدعى فيما بعد أنه عدل عن السفر بملء أرادته، ولكن الشجار لم ينقطع بينه وبينها، إلى أن صرخت فى وجهه أخيرا قائلة:

– أتريد الحاق الأذى بى؟ ألا تفهم أن سلوكك هذا يسىء إلى صحتى وإلى مستقبلى؟ أتريد أن تجعلنى حزينة تعسة طول عمرى؟ سأسافر ولن تسافر معى.

وثار إدوار ولكن ثورته فى هذه المرة أيضا أعقبها سكون سريع. فجعل يضاعف إنفاقه وهداياه على أمل أن يرضيها، ولما تبين بعد هذا كله أنها مصرة على السفر مع غيره، ضاقت الدنيا فى وجهه، وفكر فى الانتحار، ثم عدل عن فكرته هذه أيضا لأنه كان ضعيف الإرادة لا ينفذ أمرا يفكر فيه.

على أنه أدرك أن ما بينهما قد انتهى، ولم يبق هناك أى أمل له فيها، فقد اختارت لنفسها عشيقا جديدا من أصحاب الملايين.. وهكذا لم يجد العاشق المهجور بدا من الرضوخ للأمر الواقع، وانصراف من دارها إلى غير رجعة، موفرا على نفسه إهانة طردها إياه.

وكان ذلك فى سنة ١٨٤٤ ونساء باريس يومئذ يخرجن بقبعات صغيرة بيضاء عليها ريش طويل، وصفتها الكاتبة

اللاذعة «مدام دى جيراردان» بأنها « أطباق من القماش الأبيض تعلوها أشياء لا تعرف لها أسماء « وأصبحت هذه القبعات حديث المجالس والمنتديات، فاحتلت من اهتمام الناس مكانة دونها مكانة التطورات السياسية فى العالم.

وكان النساء من قبل ذلك قد تعودن التدخين أمام الرجال، مما دعا بعض الكتاب وفى مقدمتهم مدام دى جيراردان نفسها إلى السخرية من هذا السلوك، والتنبؤ بأن الرجال بعد خمسين سنة سوف يصابون بما يشبه الذهول فتنتقل إدارة الشئون العامة إلى أيدى الجنس اللطيف.

obeikandl.com

عاشق فى الثمانين

وكان يعيش فى باريس، فى ذلك الوقت، نبيل روسى فى خدمة النمسا بلغ العقد الثامن من العمر، يدعى الكونت دى ستاكلبرج، وهو رجل هزيل جاف له شاربان طويلان وشعر مسترسل على خديه، ينظر إلى الناس نظرة ملؤها الكبرياء والعجرفة، وقد عمل فى السلك السياسى فزامل الوزير الفرنسى تاليران، والوزير النمساوى مترنيخ فى مؤتمر فينا، ولكنه برغم تقدمه فى السن، بقى فتى القلب يداعب النساء بيمينه، ويوزع الصدقات على الفقراء بيساره، ويقول مبررا ذلك:

– إن على الرجل أن يوفى كل شىء حقه، سواء فى الجد أو اللهو.

وكان الكونت دى ستاكلبرج هذا يقرأ كتب الصلاة يوم الأحد، أما فى الأيام الأخرى فيطالع بلذة وشغف طائفة من الكتب التى لا تمت بصلة إلى الورع والتقوى، وقد كان يخفيها على أهل بيته وخاصة الكونتس زوجته احتراما لها وإجلالا لقدرها.

وهو يخرج للنزهة فى شوارع باريس منذ اتخذها مقرا له بعد اعتزاله منصبه، ويحلو له أن يراقب الغيد الحسان فى روحاتهن وغدواتهن، وأن يقترب من راقصات الأوبرا فيداعب أنوفهن الصغيرة، وكان عضوا فى نادى جاناش، الذى يضارع فى شهرته نادى سباق الخيل فى باريس، ويشترط لقبول العضو فيه أن يكون دخله مائة ألف فرنك على الأقل.

ولكن الكونت الشيخ مع هذا كله كان حريصا على التزام الدقة فى اختيار عشيقاته، فهو لا يختارهن إلا من نساء الطبقة الراقية، أو الغانيات الشهيرات، أما العاملات، والخادمات، والبائعات، فإنه لا يتنازل إلى النظر إليهن لأنه أرفع منهن مقاما.

وكان شديد الرغبة فى أن يثبت لأصدقائه أنه برغم شيخوخته ما زال فتى العاطفة قديرا على اجتذاب قلوب الغيد الحسان، وما أن وقعت عيناه على مارى دوبليسى حتى فتنه جمالها وأخرجه عن وقاره، فانطلق يتابع خطواتها فى الحفلة الراقصة التى جمعتهما المصادفات فيها، وبقى يحوم حولها، ويحاول الوقوف فى طريقها، حتى تمكن من أن ينتحى بها ركنا منعزلا، وقال لها:

– هل تسمح سيدتى بأن أقدم لها نفسى؟ الكونت دى ستاكلبرج، سفير النمسا سابقا.

وأشارت مارى برأسها إشارة الرضا، إذ كانت منذ النظرة الأولى إليه قد عرفت ما ينطوى عليه صدره، وأعجبها منه انتصاب قامته، وتأنقه فى اختيار ثيابه، ووجهه الجامد الجاف، وعيناه اللتان يشع منهما الذكاء، وفمه الذى يبدو خبيرا بفن التقبيل.

وبعد مضى شهر على تلك المقابلة الأولى، كان الكونت الروسى الشيخ يتناول العشاء على مائدة مارى دوبليسى، وليس معهما ثالث.

وبعد حديث طويل، أسند الكونت يده إلى طرف المائدة، ونظر إلى الحسناء من وراء أزهار الكاميليا التى تزين المنضدة، وقال بلهجة كلها إعجاب وكلها رغبة.

– حقا... إنك امرأة لا مثيل لها... امرأة لا تجارى.

ومنذ ذلك العشاء، أصبحت مارى دوبليسى، وهى فى الحادية والعشرين من العمر، عشيقة النبيل الروسى ستاكلبرج، وهو فى العقد الثامن، وأصبحت أيضا ملكة باريس الحقيقية، التى رسم فيانو وفيدال صورتها فيما بعد وهى عارية الكتفين، ذابلة العينين، فى صدرها زهرة كاميليا مفتحة الأكمام، وأراد الكونت العاشق أن يجعل عشيقته تنسى أنه شارف الثمانين، فأغدق عليها المال

والهدايا، وحاول جهد طاقته أن يبدو فى عينيها شابا بمشاعره الرقيقة وأحاديثه العذبة، كلما أعجزه أن يكون شابا بسنة ومظهره، وفطنت هى إلى هدف العاشق الشيخ، فهونت عليه الأمر، وقنعت منه بما يسبغ عليها من سخائه، وحرصت على ألا تبدر منها أية بادرة تدل على ما تشعر به أحيانا فى صحبته من ملل وسآمة وانقباض.

ومهما يكن من أمر فإن ما حدث بين الشيخ العاشق والغانية اللعوب لم يكن يشبه فى شىء ما كان بينها وبين العشيق السابق باريجو، من شجار لا نهاية له.

أما الكونت، فقد تبين فى عشيقته الجميلة خصالا ما كان يظن مثيلاتها يتخلقن بها، فهى ذكية رقيقة الشعور حساسة سريعة الخاطر، بارعة فى شؤون الغرام إلى أبعد ما يمكن أن تبلغه براعة محترفات الحب، ولذا تدله بحبها وأصبحت حياته كلها وقفا عليها، لا يفكر الا فيها ولا يعيش إلا من أجلها، وكان حين يأوى إلى فراشه ليلا وزوجته الكونتس إلى جواره فى مخدعها، يبقى ساعات مسهدا يطلق لخياله العنان فى الظلام المحيط به، ويهتز طربا ونشوة كلما تصور عشيقته الحسناء تبادله الحب والاخلاص.

وكثيرا ما عادت به ذاكرته إلى غرامه السابق بغيرها من النساء الكثيرات اللاتى عرفهن فى حياته الطويلة فى

النمسا وروسيا وألمانيا وإيطاليا.. ثم إذا به يطرد من مخيلته صور كل أولئك العشيقات السابقات، ولا يبقى إلا صورة مارى دوبليسى، لأنها تفوقهن جميعا جمالا وتأنقا وذكاء.

وقال لها ذات يوم، وهو يرمقها بنظرات الإعجاب والدهشة:

– لست أصدق إنك من بنات الشعب يا مارى، فهل كان أبوك أميرا أم نبيلا... قولى لى: من أنت... هل جئت إلى هذا العالم ثمرة غرام بين أمير خطير وخادمة أو وصيفة؟

ولكن مارى شمخت برأسها، وارتسمت على شفتيها ابتسامة ساخرة، وقالت له:

– أية غرابة فى أن يكون أبى أميرا أو نبيلا؟.. لقد ولدت يا عزيزى فى وسط من أرقى الأوساط، أعلم هذا واحفظه ولا تشك فيه.

قالت هذا ثم أخذت تفكر فى أبيها السكير العربيد، الذى كان القرويون يسمونه الساحر، والذى باعها ببضع قطع من الفضة لجماعة من الغجر.. وفكرت أيضا فى بلدة نونان، وفى الطرق المحيطة بها، وفى ذلك البيت القديم المتهدم، والاسطبل القذر الذى فيه.

★★★

أعد الكونت ستاكلبرج لعشيقته منزلا جديدا فى شارع مادلين، إيجاره نحو ألفى فرنك فى السنة، ويتألف من ست حجرات، تشرف نوافذ ثلاث منها على الشارع، ونوافذ الثلاث الأخرى على فناء المنزل، ومخدع مارى فى إحدى هذه الحجرات الأخيرة، ولا يزال هذا المنزل باقيا إلى أيامنا هذه، عبقا بما تركته فيه تلك الغانية الجميلة من آثار عطورها الغالية المنتقاة.

وكان السقاء يحمل الماء كل يوم إلى الدار ويملأ الآنية المعدة له، وكان ذلك من مظاهر الترف فى ذلك الحين، وكانت جدران المنزل مغطاة بالسجف وعلى أبوابه ونوافذه ستائر فاخرة تفتح وتغلق بطريقة مبتكرة، وقد حرص الكونت على أن يكون نظام منزل عشيقته كنظام منازل العظماء والسراة وكبار الأغنياء، فالخادم لا يخاطب سيدته مباشرة، بل يخاطب الوصيفة التى لها وحدها حق الاتصال بربة الدار، فكان يقول للوصيفة مثلا:

– كلوتيد، أرجو أن تقولى لسيدتى أن العربة أمام الباب.

ثم يهرول الخادم إلى الخارج فى انتظار خروج الحسناء، وركوبها لكى يجلس مكتوف اليدين على المقعد الخلفى بالعربة، وكان على الوصيفة كلما فتحت بابا ودخلت منه أن تغلقه خلفها، كما كان عليها أن تمشى وعيناها

إلى الأرض، أما حجرات البيت فقد رتبت بنظام دقيق جعل لها رونقا متجددا، فالأزهار تُبَدَّلُ بها كل يوم أزهار جديدة، والكاميليا تحتل بينها المكان الأول، لأن ربة الدار تعتقد أنها تجلب لها الخير والحظ، وجميع التحف والآنية والزهريات والطنافس من أثمن ما أبدع الصناع الحاذقون، وهكذا حفل منزل مارى دوبليسى بكنوز لا تقدر بمال، من تحف نادرة، ورسوم لأشهر الفنانين، وأثاث استورده الكونت خصيصا لمعشوقته من مختلف الانحاء.

أما حجرة مارى الخاصة فقد كانت أشبه بزهرة كبيرة قد ضمت أكمامها على زهرة النساء وريحانة الغوانى فى باريس، وفى حجرة الاستقبال كان الزائرون والمعجبون والمقربون يجلسون مع الحسناء، او فى انتظارها، وقد يطوفون بالقاعات الأخرى متفرجين، ولكن مخدعها لم يكن يفتح لأحد من هؤلاء، فقد حرصت على أن يبقى بابه الصغير مغلقا باستمرار، سواء بعد مغادرتها أياه، أو حين تخلو إلى نفسها فيه، تتسلى بالعمل على النول الذى أعدته لذلك خصيصا، أو تجلس على المقعد المريح فيه تطالع كتابا أو رواية، أو تطلق لأفكارها العنان، وكثيرا ما كانت تأخذها سورة الندم فتجثو على سجادة هناك وتأخذ فى الصلاة مستغفرة تائبة.

وفى حجرة الاستقبال كان الزائرون والمعجبون والمقربون يجلسون مع الحسناء، او فى انتظارها، وقد يطوفون بالقاعات الأخرى متفرجين، ولكن مخدعها لم يكن يفتح لأحد من هؤلاء، فقد حرصت على أن يبقى بابه الصغير مغلقا باستمرار، سواء بعد مغادرتها أياه، أو حين تخلو إلى نفسها فيه، تتسلى بالعمل على النول الذى أعدته لذلك خصيصا، أو تجلس على المقعد المريح فيه تطالع كتابا أو رواية، أو تطلق لأفكارها العنان، وكثيرا ما كانت تأخذها سورة الندم فتجثو على سجادة هناك وتأخذ فى الصلاة مستغفرة تائبة.

وفى هذا المنزل عاشت مارى دوبليسى بقية أيامها، حتى لفظت أنفاسها الأخيرة.

لقد ظنت ان الملل لن يعاودها، ولكن الأيام أثبتت خطأ ظنها، فقد أتعبها هذا العشيق الجديد كما أتعبها غيره من قبل، ومع ان الناس جميعا كانوا يعرفون أنها خليلة الكونت العجوز، فإن ذلك لم يمنعهم من ملاحقتها، وبقى العشاق يتزاحمون على بابها ليلا ونهارا، إن حياتها الصاخبة ما زالت كعهدها الأول لم تتبدل والأحاديث التى تملأ أذنيها تتردد فيها دائما عبارات سمعتها مئات المرات: « أحبك يا مارى، أعبدك يا مارى،.. آه لو علمت يا مارى،.. ألا تشفقين علىَّ يا مارى؟»

وفى كل يوم، كانت تستيقظ من نومها خائرة القوى لا ترغب فى رؤية أحد، فتتثاءب، وتتقلب على فراشها، ثم تدق الجرس فإذا دخلت عليها الوصيفة مهرولة، قالت لها:

– كيف حالة الجو اليوم يا كلوتيلد؟

وفى الأيام الباردة الممطرة كانت تود لو تبقى فى سريرها، ولكنها لم تكن تستطيع ذلك، فالكونت العجوز لا يلبث أن يحضر، وسيحضر أيضا ذلك المركيز الشاب، الذى يلاحقها ويضايقها بتأوهاته وتوسلاته منذ أسابيع، وهكذا كانت تنهض متثاقلة وتدخل حجرة الزينة متمتمة :

– إن هذه الساعة التى أقضيها هنا لألذ ساعات نهارى.

وبدل أن تقضى فى زينتها ساعة واحدة، تلبث ساعات طوالا، ترقب نفسها فى المرآة، وتداعب بشرتها الملساء، وتعجب بامتلاء زراعيها وصفاء عينيها، وفى هذه الحجرة كانت تستقبل السيد دجوتير، حلاقها الخاص كل يوم، وكانت تبتسم كلما رأته منتصبا أمامها حاملا مشطه وزجاجاته ومساحيقه، وتجد لذة كبيرة فى الاستماع لثرثرته، فهو يعرف كثيرا من الأخبار والنوادر ولا يفوته شىء من حوادث الغوانى فى باريس، وما يكاد يدخل ويحيى حتى يبدأ الحديث عن الطقس، ثم عن الحوادث الجديدة فى

دار الأوبرا هامسا فى أذن الحسناء أن الممثلة أماندا سرقت من غريمتها الممثلة أولبا عشيقها الغنى، وإن راقصة خاملة ستصبح عما قريب مشهورة، لأنها وجدت عشيقا غنيا.

وكان للسيد دجوتير الحلاق ذوق خاص فى تقدير الجمال، وفى رأيه أن مارى دوبليسى أجمل النساء على الإطلاق، ولهذا كان يردد على مسامعها دائما كلما ذهب إلى بيتها لتجميلها:

– أه يا سيدتى، ياله من عنق جميل، إن هذا العنق لا مثيل له بين أعناق الباريسيات، وهذا الصدر، ياله من صدر بديع، هل تسمحين لى بإبداء رأيى، إننى أنصح لك يا سيدتى بألا ترتدى من الثياب إلا ما يكشف عن هذا الصدر الساحر العجيب.

وكانت هى تدعه يتكلم، لأنها تعلم ألا فائدة من محاولة إسكاته، فهو لا يستطيع أن يسكت سواء أصغت اليه أم تجاهلته، وعندما ينتهى الحلاق من مهمته، تشكره مارى بكلمة أو إشارة، وتضيف قائلة: «إلى الغد»، ولكن دجوتير يسأل دائما: « ألا يوجد فى المنزل من يريد أن يحلق ذقنه»، فان كان أحد من العشاق، منتظرا خارج الحجرة ، فإن دجوتير يحلق له بسرعة وينصرف.

وهناك زائر كان يجيء إلى المنزل، مرة فى الأسبوع مرتديا ثوبه الأسود وهو على عكس السيد دجوتير الحلاق يؤثر الصمت فى أكثر الأحيان، ولا يسمح لنفسه بأن يخاطب أحدا غيرها ممن فى المنزل، إلا من يعلم أنهم من الكبراء والأغنياء وهذا الزائر هو السيد « جوزيف بو « الذى يقوم بمهمة تنظيف قدمى ربة الدار الحسناء وتقليم أظفارهما، وهو يباهى بأنه يؤدى هذه المهمة فى القصر الملكى، وبأنه مسيطر على الأقدام الملكية كلها، أقدام الرجال وأقدام النساء على السواء.

على أن السيد جوزيف بو كان لا يكاد يجلس على مقعده الصغير، ويأخذ بين يديه قدمى مارى دوبليسى، حتى ينطلق فى الحديث واصفا أقدام الأسرة الملكية كما يصف الناقد صورة زيتية أو تحفة نادرة، وهو يرى أن أقدام الملوك تختلف دائما – إلى حد ما – عن اقدام الرعايا مهما سمت منزلتهم وعلا مقامهم...

وبعد أن يفرغ جوزيف من عمله ينهض متراجعا إلى الخلف، كما يفعل فى قصر التويلرى بعد معالجة الأقدام الملكية، وهنا تدعو مارى دوبليسى وصيفتها لتساعدها فى اختيار الثوب الملائم لذلك اليوم، وفى أثناء الاختيار، تجتاز الحسناء حجرات بيتها لتستنشق عبير الكاميليا، وكثيرا ما كان المعجبون يرسلون إليها طاقات الورد البديعة فيرسلها

الخدم من تلقاء أنفسهم إلى المطبخ، لعلمهم بأن سيدتهم لا تود من الأزهار غير الكاميليا، حتى أصبح منزلها حافلا بهذه الأزهار الجميلة، والحسناء تلمس كل ذلك بيدها، وتأمر بأن يلقى من النافذة ما يبعث به إليها المعجبون من الأزهار الأخرى.

وبائعو الأزهار يعرفون ذلك، فيترقبون تحت النوافذ ذلك المن الهابط عليهم من السماء ، ويسرعون إلى بيعه فى الشوارع.

وحينما تفرغ مارى من زينتها وارتداء ثيابها، وتملأ رئتيها من عبير الكاميليا، تجلس على أحد المقاعد قلقة متململة، ثم لا تلبث قليلا حتى يدق جرس الباب، ثم يدخل عليها الكونت ستاكلبرج فى ثوبه الضيق وبيده قبعته العالية، ويهتف بها قائلا:

– كيف حالك يا صديقتى؟ هل قضيت ليلة هادئة؟ انك اليوم مثل كل يوم رائعة كفينوس، لكننى أرجو ألا تطيلى السهر وأن تتجنبى الأرق وتعالجيه إذا أصابك إن الأرق لألد إعداء المرأة وهو كاف لهدم صحتها فى أقل من سنتين، اتريدين الخروج فى نزهة على الخيل، إن جوادك فى انتظارك أمام الباب، لينطلق فى الغابة.

وتدعو مارى وصيفتها، وتقول لها:

– كلوتيد،.. سأركب اليوم.

ثم تنهض فترتدى سروالا من جلد غزال أبيض وسترة من جلد غزال أشهب وتضع على رأسها قبعة عالية، ثم تهبط السلم مسرعة ضاربة درجاته بحذائها الأسود اللامع.

ويراها المارة فيقفون لمشاهدتها وهى تعتلى صهوة جوادها، بينما الكونت يمسك لها السرج واللجام مغتبطا مباهيا، تتجه بجوادها على مهل إلى شارع الشانزليزيه فإذا بلغته أطلقت للجواد العنان، وعيناها تلمعان وصوتها يرتفع بكلمات قصيرة منغمة تحث بها الجواد.

أما الكونت العاشق فكان يتبعها ما يستطيع من السرعة، تعبا، خائر القوى لا يجرؤ أن يناديها لتخفف سرعتها مخافة أن يثير من حوله الضحك والسخرية.

وحينما كانت تبلغ مارى على جوادها غابة بولونيا بأشجارها الوارفة على جانبى طرقاتها المتشعبة التى تخلو من المارة فى مثل هذه الساعة الباكرة كانت تعاودها الذكريات الماضية فتتصور نفسها من جديد فى غابات نونان، تقود الماشية إلى الغدير وتقضى الساعات متكئة على الأعشاب.

وفجأة، تشد الحسناء لجام الجواد، فيقف بها هناك ريثما يلحق بها الكونت العجوز، ثم ينطلق من حلقها

سعال لا نهاية له. ويقف الكونت صامتا جامدا كالصنم، لأنه لا يحب أن يجرح شعورها بمخاطبتها فى هذا الشأن، ويبقى كذلك وهو يختلس النظر إليها قلقا مشفقا، حتى تذهب عنها نوبة السعال وتفتح عينيها ثم تبتسم له قائلة:

– لا تقلق، إنه شىء بسيط، إننى أحب السرعة أكثر مما ينبغى وقد أتعبتنى.

ثم تبدى رغبتها فى العودة، فيوافق الكونت بلا جدال.

★★★

وأرادت أن يكون لها فى منزلها طيور وعصافير. فجاءها الكونت بأنواع مختلفة من الببغاوات المتباينة الألوان، ومن الكنارى والبلابل والحساسين وغيرها مما لايوجد إلا فى الجزر النائية، وجاءها أيضا بقرد صغير لم يعش طويلا لأنه كان لا يقوى على البرد، فمات بين يديها ملفوفا فى الصوف، وقد طوق عنقها بذراعيه وراح يرمقها بنظرات كنظرات الأطفال وبكت مارى دوبليسى قردها كأنه صديق حميم.

وجاءها الكونت بعد ذلك بكلبين ثمينين أحدهما ذكر سمته شيرى والآخر أنثى سمتها « دوشيس »، وبلغت عنايتها بهما حد الهوس، فكانت تسهر على غسلهما وتسريح شعرهما وترسلهما إلى عيادة للكلاب فى ضاحية

نـولى، حيـث يضـع الملـك لويـس فيليـب كلابـه لعلاجهـا، ثـم جاءهـا بكلـب ثالـث أصبـح أعـز الـكلاب الثلاثـة لديهـا فسـمته « تـوم»، وهـو مـن كلاب الصيـد الأصيلـة، وكان هـذا الكلـب يبادلهـا عطفـا بعطـف وحبـا بحـب، فـلا يبتعـد عنهـا لحظـة واحـدة فـى البيـت ويرافقهـا فـى النزهـة، ويتنهـد إذا مـا سمعهـا تكـح أو تشـكو، وكثـيرا مـا كانـت مـارى تقـول:

– عندمـا ينتابنـى السـعال فـإن هذا الكلب وحـده يرثى لحالى.

ثـم تغمـره بالقبـلات مخفيـة رأسـها فـى طيـات شـعره الطويـل.

أوهام المرض

صارت مارى دوبليسى لا تستطيع البقاء وحدها، برغم شدة حاجتها إلى الراحة والهدوء، وصارت جميع أنواع الأصوات تزعجها حتى الغناء والموسيقى.

إنها تعبة، تعبة لسماعها دائما أن الناس يحبونها... وأن عشاقها يعبدونها، إنهم جميعا يرددون على مسامعها بلا انقطاع إنها جميلة ساحرة، وهى تطفو فوق بحر صاخب من عبارات التملق والثناء والإعجاب.

إنها دائما فى حركة... تمشى على قدميها، أو تسير فى عربتها، أو تركب جوادها، أو تشاهد السباق فى شانتيللى، أو تجرى فى الحفلات الساهرة وحلقات الرقص، متنكرة فى أثواب تبتكرها.

وهى ترى حولها دائما رجالا يتلوهم رجال، وجميع هؤلاء وأولئك لا حديث لهم غير الحب والإعجاب، ولا هم لهم إلا إحراق البخور بين يدى معبودتهم الحسناء.

كانت بالليل تشاهد العرض الأول للروايات المسرحية الجديدة، وتتناول العشاء، وترقص، وتبذل نفسها للحب.

وفى النهار تشغلها الخياطة وصانعة القبعات، وإنفاق النقود بسخاء فى شراء الأزياء الجديدة والتحف الغالية وغيرها.

وحينما كانت تخلو إلى نفسها، كانت تناجى نفسها قائلة:

- ما هذا أيتها المجنونة؟ ما أكثر ما تقتنين من الأزياء؟ وما أكثر القبعات التى تلبسينها مرة ثم تلقينها جانبا، وما أكثر ما لديك من أدوات الزينة والتبرج، ومن التحف والآنية المنوعة، وما أكثر المناديل والقفازات والأحذية التى تعطينها للخادمات، وما أكثر ما عندك من جواهر وحلى، ولكن هذا كله لا يبعث فى نفسك السلوى، إنك تتململين وتتضجرين برغم كل ما يحيط بك من مظاهر البذخ والترف، وبرغم أن عشاقك الكثيرين يغمرونك بالقبلات والهدايا والجواهر، إن كل هذا لا يضمن لك السعادة والهناءة، إنك تبكين كلما خلوت إلى نفسك، وقد بكيت هذه الليلة ورأسك ملتصق برأس كلبك المحبوب، عندما رأيت على منديلك نقطة من الدم نفرت من فمك أيتها المسكينة.

نعم بكت مارى حين رأت أول نقطة من الدم ينفثها صدرها، ثم دقت الجرس بعنف صائحة بصوت مرتجف:

- الطبيب، إلىَّ بالطبيب.. لا أريد أن أموت.

وجاء الطبيب، ووضع النظارة على أنفه وانحنى على جسدها الممدد فى سريرها يفحصها ويجس نبضها، بينما هى ترقبه خائفة قلقة... قال لها بهدوء:

– الراحة يا سيدتى... الراحة التامة... يجب أن تلزمى سريرك منذ الآن.

ووصف لها دواء وانصرف...

إذن فهى مريضة، مريضة يجب عليها أن تمتنع عن الحركة، إنها تقرأ فى الورقة التى كتبها الطبيب أدوية تتقزز منها: لبن الحمير، بوتاسيوم، شراب.

إذن، قد يكون الموت لها بالمرصاد،.. إنها تتصور نفسها فى نعش محمولة على عربة إلى المقابر... وأكاليل الورد توضع على القبر... والصحف تخصها بأعمدة من المديح أو الهجو، وخلف نعشها جميع الذين عرفوها وكانوا لها أصدقاء أو عشاقا، والذين أحبوها وأحبتهم. إنها ترتجف، إنها تتمتم:

– إلهى... إننى شقية تعسة... إننى خاطئة... ولكن أغفر لى يا إلهى... سامحنى.

ثم تجر نفسها جرا إلى الحجرة المنعزلة، الحجرة التى لا تسمح لأحد بأن يدخلها، وتلقى بنفسها على السجادة وتصلى.

ووجدتها كلوتيد على تلك الحالة وقد شحب لونها وانتابتها رعشة قوية، عندما دخلت تقول:

– لقد جاء سيدى الكونت.

فنهضت مارى، واستجمعت أفكارها، وقالت بصوت هادىء لا رجفة فيه:

– ليدخل... ليدخل.

ونهضت للقاء عشيقها الشيخ، محاولة إخفاء اضطرابها وقلقها، وحدثت نفسها بأن من الخير لها أن ترتدى أجمل أزياء السهرة وتخرج مع الكونت إلى حيث يريد.

إن باريس تضحك وتلهو، والمسارح والمطاعم والملاهى تغص بالوافدين عليها من مختلف جوانب العاصمة. فلتذهب إذن إلى المسرح، ولتتصدر مكانها المعتاد هناك مسندة يدها إلى طرف المقعد، مجيلة عينيها بين الحاضرين، ورد التحيات بأحسن منها، وإن هذا على الأقل يحول دون أن تشمت بها غريماتها الكثيرات.

وخرجت مارى دوبليسى فى تلك الليلة، وسهرت مع الكونت، ولم تعد إلى المنزل إلا قبيل الفجر.

ولائم وسهرات

أخذت مارى دوبليسى تقيم بمنزلها ولائم تتحدث باريس عما تقدم فيها للمدعوين من أشهى أنواع الطعام والشراب وأغلاها.

وصارت تخشى البقاء وحدها فى المنزل، فكثرت سهراتها مع الكونت خارجه، وحينما لا يعود معها إليه بعد انتهاء السهرة كانت تصطحب فريقا من أولئك « الدانددى« الذين يحومون حولها، وتصعد معهم إلى قاعة الاستقبال.

وكانت تساعدها فى استقبالهم جارتها «كليمانس برات»، وهى امرأة جشعة بارعة فى استغلال جارتها الحسناء الشهيرة السخية التى تعطف عليها متناسية عيوبها الكثيرة وتعتمد عليها فى طائفة من الشئون.

إن كليمانس تخدم الغادة الحسناء باهتمام ونشاط، لأنها تعلم أن خدمة مارى لا تذهب سدى، وأن أجزل الفوائد ستعود إليها من وراء التملق لها والبقاء إلى جوارها.

وكانت كليمانس شخصية عجيبة تتاجر بكل شىء، وتستحل كل شىء، لا هم لها غير الربح، ثرثارة واشية خبيثة كاذبة، بارعة فى استغلال العلاقات بين الرجال

والنساء، وكانت تمهد الطريق لبعض الرجال الأسخياء ليقضوا السهرة فى منزل جارتها الحسناء.

ومارى تدرك ذلك وتعرف عيوب جارتها، ولكنها تغض الطرف عنها وإن كانت أحيانا تعنفها وتطردها فتذهب كليمانس برات غير غاضية ، وتختفى زمنا حتى ترضى عنها مارى وتناديها فى ساعة حزن أو يأس. وعندئذ تهرول كليمانس مسرعة إلى صديقتها الغانية، وقد أعدت لها قائمة طويلة بأسماء طائفة جديدة من المعجبين يرغبون فى صداقتها ويعرضون عليها أموالهم الطائلة، وتأخذ كليمانس فى التغنى بمحاسن مارى والتزلف إليها، حتى تصرفها الغانية السخية بهدية جديدة، وتقول مارى لنفسها: «لعل كليمانس امرأة طيبة، ولعلى مخطئة فى إساءة الظن بها».

أما كليمانس فكانت تكره مارى وتخافها.

مسكينة مارى دوبليسى، إنها تطلق لنفسها العنان فى هذه الحفلات التى تقيمها بمنزلها فتشرب وتغنى وتضحك وتجلس إلى البيانو وتعزف ألحان الرقص ويصفق لها المدعوون إعجابا، ثم تنهض وترقص وحدها حتى يثب إليها أحد الحاضرين ويندفع بها إلى حجرة أخرى، وقد خارت قواها وتصبب العرق من جبينها، فترتفع أصوات الباقين بالاحتجاج.

وعند الفجر، ينصرف ذلك الجمع الصاخب المعربد، وتدفع كليمانس المدعوين إلى الخارج واحدا بعد واحد، وتسمع مارى أصواتهم عندما يودع بعضهم بعضا قائلين: »مساء الخير«. مع أن الشمس ملأت الأفق حينذاك.

وبعد انصرافهم تسرع الوصيفة كلوتيلد إلى تنظيف القاعات وفتح النوافذ لطرد الروائح التى تركها المعربدون.

أما الكونت العجوز فكان يقيم من حين إلى حين وليمة فاخرة فى منزل عشيقته، يدعو إليها لفيفا من النبلاء والأشراف، وتتصدر مارى المائدة، وهى السيدة الوحيدة بين أولئك الرجال.

وكانت تتأخر عادة فى الظهور أمام هؤلاء المدعوين، فلا تدخل القاعة إلا بعد أن ينتصف الليل، فترتفع الأنظار إليها حين تقبل فى أثوابها البهية وحليها الفاخرة ولآلئها الناصعة، ويتساءل أولئك النبلاء والأشراف فيما بينهم:

– أهى أميرة أم فتاة من عامة الشعب؟!

ثم تجلس على مقعد وثير، فى ركن من القاعة، ويحيط بها المدعوون يغرقونها فى سيل من عبارات الثناء والإعجاب، أما هى فإنها لاترد إلا بكلمات متقطعة، حتى إذا ما عزف لحن على البيانو من ألحان شتراوس، أبدت رغبتها فى الرقص بإشارة من يدها، فيتقدم لها بعض المدعوين لتختار

واحدا منهم تنطلق معه فى الحلبة خفيفة كالطير، وتتجه الأنظار إليها وهى تدور فى القاعة مستندة إلى ذراع رفيقها، كأنها فراشة مبسوطة الجناحين، وتعود فى النهاية إلى مكانها تاركة صاحبها الذى يرافقها لاهثا فاقد الرشد.

وكان الكونت ستاكلبرج يقدر سلوكها هذا حق قدره، ويعجب بها لأنها لا تتبدل أمام أولئك العظماء، بل تخاطبهم بأدب، وتتجنب كل كلمة نابية أو حركة معيبة، وفى نهاية السهرة يخرج الكونت مع المدعوين تاركا عشيقته وحدها كيلا يلفت الأنظار، ثم يعود إليها بعد أن يتأكد من انصراف مدعويه، ويغمرها بالقبلات، ولكنها تشيح عنه بوجهها، فيسألها:

– أأنت تعبة يا مارى؟

فترد عليه قائلة: «نعم، أنا تعبة جدا».

ثم تلتحف بمعطفها، فيتنهد الكونت، ويقودها إلى مخدعه ويخرج، ويغلق الباب وراءه.

مع اسكندر دوماس الابن

كان الباريسيون فى ذلك الحين يتحدثون عن كاتب شاب فى العشرين من عمره هو اسكندر دوماس الابن، ويتوقعون له أن يبلغ قمة الشهرة كأبيه، فهو يكتب أقاصيص يطالعها القراء بشغف عظيم، وهو يندفع فى المجتمع الباريسى فخورا بجماله وخفة روحه وأناقته وشهرة أبيه الذى يحبه ويشجعه على التمتع بالحياة وإشباع ميله إلى اللهو والأناقة.

وقد عرفته مارى دوبليسى فى سنة ١٨٤٤، وكان لا يرتدى إلا ثيابا من صنع هومان أشهر خياطى باريس، وسرواله الواسع ينفرج عن جوارب من الحرير وحذاء أسود لماع، وسترته من صنع لندن، ورباط عنقه ناصع البياض، وعصاه ذات مقبض من الذهب، وله شاربان صغيران بديعان.

إنه قطع عهد طفولته فى كنف أمه التى هجرها أبوه، ثم ضمه هذا إليه، ونفخ فيه من روحه، فشب يحب الطعام الجيد، والنبيذ المعتق، يحفظ كثيرا من الأحاديث والنوادر، ويحسن إيرادها فى المجالس، كما كان بهى المحيا، سريع الخاطر، يثير إعجاب النساء كأبيه، ويحمل مثله بين ضلوعه قلبا يخفق لجميع

أنـواع الجمـال، ويـرى جمـال المـرأة أبـدع هـذه الأنـواع.

وكان حـين عرفتـه مـارى دوبليسـى مـا زال يحـاول أن ينسـى أيـام طفولتـه، عندمـا كان رفاقـه فـى المدرسـة يضربونـه وكانـت أمـه تقضـى الليـالى تصنـع لـه الثيـاب، كان يشـعر بـأن عهـد الآلام قـد ولى، وأن الحيـاة تبتسـم لـه، وعهـد السـعادة يقـترب منـه بخطـوات سـريعة واسـعة.

لكن كيف عرف مارى، وأين عرفها؟

لقد كتب هو نفسه فى ذلك فقال:

– قضيـت نهـارى فـى ضواحـى العاصمـة مـع صديقـى جاسـتون، ثـم عدنـا إلى باريـس، ولمـا أقبـل الليـل فكرنـا فيما يجـب أن نصنعـه، وتولتنـا الحـيرة، ثـم انتهـى الأمـر بـأن دخلنـا مسـرح الفاريتيـه، وهنـاك رأينـا امـرأة ممشـوقة القوام.

ومسـرح الفاريتيـه هـذا، صالـة كبـيرة حمـراء، مـا زالـت باقيـة حتـى أيامنـا هـذه بجدرانهـا الموهـة بالذهـب، وكانـت فـى ذلـك الحـين أشـبه بصنـدوق ضخـم مـن صناديـق الجواهـر والحلـى، يضـم مجموعـة هائلـة مـن أشـهر نبيـلات فرنسـا ونسـائها، فيهـن السـمراوات والشـقراوات ولـكل منهـن جاذبيتهـا الخاصـة. ونظرتهـا إلى الأخريـات متـوددة أو حاسـدة كارهـة ناقمـة، وكانـت قاعـة المسـرح تعـج بالمتفرجـين، وتشـبه

خلية النحل بما ينبعث من جوانبها من همسات وضحكات خافتة، وقد جلس اسكندر دوماس الصغير على مقعد فى الصفوف الأولى ومعه صديقه ديجازيت الثرثار الذى يحبه الناس جميعا، وكان يضرب مقعده بيديه نافد الصبر عندما وقع نظره على مارى دوبليسى جالسة هناك، بين طاقة من أزهار الكاميليا وعلبة كبيرة من الحلوى، وخلفها رجل يمد رأسه من وقت إلى آخر، من فوق كتفها، ليراقب المعجبين الذين يرمقونها بنظراتهم.

وتذكر الكاتب الشاب أنه رأها قبل ذلك اليوم تجتاز ميدان البورصة خارجة من محل للأزياء، فوضع يده على صدره ، وخفق قلبه إعجابا بالغانية الفاتنة التى ملأت الصالة بهاء ونورا، وبدت أشبه بموجة من الحسن فى بحر من المخمل الأسود، يزين صدرها عقد طويل من اللآلىء اللامعة، وشعرها المنمق كأن جدائله من الحرير الأسود الثمين.

وتنبه أوجين ديجازيت إلى اضطراب رفيقه فسأله:

– ما بك؟ آه، إن دوبليسى تبعث الخفقان إلى قلبك يا عزيزى؟.. كن على حذر...فلست وحدك هنا، والناس يرقبون.

وقال دوماس الصغير:

– ديجازيت، لابد أن أتعرف إليها.

فابتسم صديقه وقال له : «ما دمت جادا فيما تقول فكن مطمئنا، سوف أقدمك إليها، وعليك الباقى، فهى عزيزة المنال لا يملكها كل من يشتهى امتلاكها، غير أننى أثق ببراعتك ومؤهلاتك، فإنك شاعر كاتب، سلاحك قلمك الذى فى يدك، ولو كنت مثريا لهون المال أمر هذه الغانية عليك، ولكن حظك قد يغنى عن المال».

ثم التفت ديجازيت إلى حيث كانت تجلس، وربت ذراع صديقه قائلا:

– إن معها السيدة كليمانس برات، وهى امرأة تعيش عالة على الغانية الحسناء، وقد عرفتها منذ حين لأسباب لا أذكرها لك الآن، وهى أسباب لا تعجب والدتى الصالحة التقية، فانتظر قليلا، سأذهب إليها الآن، وعما قليل تدعوك المعبودة الجميلة إلى العشاء الليلة إذا لم تكن مرتبطة بموعد سابق فإن عشيقها المستبد الكونت ستاكلبرج لا يفارقها إلا نادرا، وهو محق فى ذلك، إنك تعرفه، أليس كذلك؟

فتنهد اسكندر دوماس الابن وهز رأسه دلالة على أنه لا يعرف ذلك العجوز المحظوظ، ورفع الستار على أثر ذلك، ولكن الكاتب الشاب لم يلتفت إلى الرواية التى بدأت تمثل على المسرح، ولا إلى ملاحظات المتفرجين على التمثيل والممثلين،

بل مضى يصوب منظاره الصغير إلى المكان الذى تجلس فيه مارى دوبليسى، فيراها فى حدقة المنظار فى إطار مستدير، بجدائل شعرها المرسلة، وصدرها العارى، ونظراتها الساحرة، وأزهار الكاميليا التى كانت تشم عبيرها ثم تنثرها حولها.

وأغمض الشاب عينيه وتخيل نفسه بين أحضان الحسناء وقد ألصق شفتيه بشفتيها.

ولما فتح عينيه، لم يعد يرى شيئا... ثم تبين أن المرأة غادرت مكانها مع رفاقها وغادرت المسرح، فنهض مندفعا إلى الباب، ورآها قد ارتدت معطفها الأبيض، ومعها رفيقها العجوز يمشى أمامها مسرعا ويصدر أمره إلى أحد الخدم، فينطلق هذا إلى الشارع ويدعو عربة الحسناء، حيث استقلتها وركب عشيقها العجوز إلى جوارها ثم ابتعدت بهما العربة مسرعة.

وفيما هو غارق فى حيرته وذهوله عند باب المسرح، وافاه صديقه وقال له بلهجة المنتصر:

– يا عزيزى، كن سعيدا، إنها الليلة غير مرتبطة بموعد وسنذهب إليها مع كليمانس الطيبة، ولكن، مالى أراك شاحبا؟ أتراك وقعت فى غرامها منذ الليلة قبل أن تجتمع بها؟ يا عزيزى كن على حذر.

★★★

امرأة شابة بارعة الجمال مستلقية فى ثوبها الشفاف على مقعد طويل فى حجرة أثاثها على طراز لويس الخامس عشر، تضيئها الشموع الموقدة فى جوانبها، وعند قدمى الحسناء شاب راكع على ركبتيه يبلل أناملها بدموعه ويجففها بأنفاسه الحارة.

تلك الحسناء هى مارى دوبليسى.. وهذا الشاب العاشق المتيم هو اسكندر دوماس الابن...

ثم مددت مارى على ذلك المقعد، وأمامها إناء من الذهب فيه ماء ممزوج بالدماء، إن السعال يمزق صدرها، وهى تنفث من وقت إلى آخر بعض الدم.

لم يجلس إليها قبل الليلة عاشق شاب يرثى لحالها ويبكى للدم ينزف من فيها، ويبلل بدموعه أناملها، إن عشاقها الآخرين يبدون أسفهم فى جمود وعدم مبالاة بالمرض الذى ينهش صدرها، أما هذا الشاب العاشق الجديد، فإنه يرحم ويشفق ويتأثر ويبكى... فهو يحب، وحبه من نوع لم تعرفه مارى دوبليسى من قبل مع أولئك المتملقين من الشبان والكهول الذين يحومون حولها.

ومنذ تلك الليلة بدأت الفصول الأولى لقصة غرام عنيف بطلاها:

مـارى دوبليسـى واسـكندر دومـاس الابـن، وعرفـت هـذه القصـة فيمـا بعـد، باسـم «غـادة الكاميليـا» التـى ألفهـا الكاتـب العبقـرى العاشـق.

كانـا يجلسـان جنبـا إلى جنـب متلاصقين على كرسـى واحد، يضحـكان ويبكيـان معـا، وكثيـرا مـا كان يهمـس إليها فـى حنان قائـلا: « يـا ابنتـى الصغـيرة،.. لابـد أنـك تألمـت كثـيرا..».

وترتمـى هـى علـى قدمـى الشـاب العاشـق الحنـون ، ثـم تمسح دموعهـا بمنديلهـا الحريـرى وتقـول لـه بلهجـة المقتنـع:

– يجـب أن أنسـى، يجـب أن أشـرب وأسـهر وأغنـى، لكـى أنسـى أننـى سـائرة إلى القـبر بخطـى سـريعة، سـأموت قريبـا، ولهـذا يجـب أن أنسـى مـا أعانيـه مـن آلام.

وهنا ينتفض هو مذعورا ويهتف بها قائلا:

– كلا. كلا.. إننـى أمنعـك مـن ترديـد هـذه الكلمـات يـا مـارى... يجـب أن تعيشـى.. وأن تعيشـى طويـلا.

وتضـع يدهـا على صدرها متنهدة وهى تنظر إليه، ثم تقول له:

– آه، نعـم، عدنـى بأنـك سـتطيل حياتـى، أريـد أن أعيـش... لا أريـد أن أمـوت؟

وكان الكاتب الشاب يعدها بذلك، وقد بر بوعده برغم موتها؛ إذ وهبها حياة ثانية أخرى خالدة بقصته « غادة الكاميليا» التى روى فى بعض فصولها قصة حياتها.

لقد جمع هذا الشاب العاشق كل الخصال التى تنشدها مارى فى الرجل الذى تحلم به، إنها تقضى معه ساعات طوالا يخيل للعاشقين أنها دقائق، هى تحدثه عن طفولتها وقريتها، وتطلعه على ما ظهر من حياتها وما بطن، وهو يتحدث ويصمت ويدون ويكتب ويفكر ويحب بقلب أشبه بالبركان الثائر، وستاكلبرج عشيقها العجوز ينظر ويرقب، إنه يغار على عشيقته الحسناء من ذلك الشاب الأنيق الظريف، وإنها لتحرص من أجل ذلك على أن تخفى شعورها نحو هذا العاشق الجديد، ولكنها لا تقوى طويلا على الكتمان، ولا تلبث قليلا حتى يتغلب شعورها هذا على كل ما عداه.

فلم تمض أيام حتى جهرت مارى بعلاقتها الجديدة، وصارت تؤم المسارح والملاهى مع عشيقها الكاتب الشاب، ثم تبقيه فى بيتها بعد السهرة إلى ظهر اليوم التالى، وكانت ترفض أحيانا مقابلة عشيقها «الرسمى» الكونت ستاكلبرج، غير عابئة باحتجاجه وبأمواله.

لقد جعلها اسكندر دوماس الابن تعرف الفرح والمرح من جديد، فهى تضحك معه وتداعبه وتتحدث إليه فى

جميع الشئون التى يفكر فى الكتابة فيها، وهو يراقبها مسرورا لسرورها ومرحها وحبها إياه، لكنه فى الوقت نفسه قلق على مصيرها، فالسعال ينتابها مرارا، وكثيرا ما تقف فجأة فى وسط الحجرة، وترتعش كالريشة، ويعلو الشحوب وجهها، ثم تلقى بنفسها على احد المقاعد باكية تشهق وتسعل وتنظر بعين الرعب إلى الدم المتفجر من فمها، وهنا يسارع إليها فيلفها بالمعطف ويحاول أن ينسيها ما هى فيه، ولكنها تدرك غرضه فتقول له وعلى فمها ابتسامة حزينة:

– لقد أصبحت مثل العجائز يا حبيبى، فهل تحزن علىَّ كثيرا، لو امتدت إلىَّ يد الموت؟

ولم يكن هو يحب هذا الحديث، ولا يريد أن تذكر الموت أمامه أو تفكر فيه.

ومارى تريد أن يكون حبها للكاتب الشاب الذى تعبده حبا لا شائبة فيه من مصلحة أو فائدة مادية، فهى لا تقبل منه مالا، ولا ترضى أن يقدم لها هدية أو ينفق فى سبيلها شيئا، إنها تحبه كما هو، وتريده من أجل نفسه لا لأنه غنى، كما هى الحال مع الكونت الروسى ستاكلبرج، وكانت دائما تقول له:

– المال والهدايا واجب على غيرك لا عليك أنت، وكل ما أطلبه منك أن تخرج معى إلى نزهة لا تكلف شيئا.

كانت تعرف أنه ليس غنيا، ولكنها كانت تجهل أنه فقير، وتعتقد أنه كبقية الشبان الذين يحومون حولها، لديه من الثروة ما يجعله قادرا على الإنفاق، غير أن الحقيقة كانت غير هذا، فلم يكن اسكندر دوماس الابن قادرا على الخروج معها، ودفع النفقات التافهة التى لابد منها فى مثل هذه الأحوال، إلا لأنه كان يمارس اللعب فى أندية الميسر، وكان الحظ يبتسم له أحيانا، ويعبس فى وجهه أحيانا.

إن مارى لا تعرف قيمة المال، وإذا ما خرجت مع دوماس، فإنها تردد باستمرار إنها لا تريد منه أن ينفق شيئا، ولكنها تبتاع فى الطريق طاقة من الأزهار، وتذهب إلى المسرح، وتأخذ علبة من المسكرات أو الفاكهة، غير مدركة أن حبيبها الأديب الشاب قد يبهظه دفع هذا الثمن الزهيد.

وفى أيام الشتاء الباردة، كانت تؤثر البقاء فى حجرتها على الخروج فى الشوارع أو إلى الملاهى، وتقضى وقتها مع عشيقها بجوار الموقد، أو تجلس إلى البيانو وتعزف ألحانا شجية يحبها دوما، ثم ينهض العاشقان لتناول العشاء.

وكانت مارى دوبليسى تسأله أحيانا:

– ألا ترى أننى أشبه مانون ليسكو، إننى أحب هذه العاشقة الوفية وأود أن تكون حياتى مثل حياتها.

وكان هو يرى أيضا أنها تشبه مانون ليسكو.. وهذا ما جعله فيما بعد يضع روايته « غادة الكاميليا» مستوحيا بعض نصوصها من قصة مانون.

وفى الساعات التى كانت مارى دوبليسى تسلم نفسها فيها إلى ذراعيه فى عناق حار طويل، كان الشاب ينظر إليها أحيانا بعين القلق والذعر؛ إذ تتجلى له حينذاك وكأنها كتلة متقدة من الأعصاب، ويخيل إليه وهو يضمها إلى صدره أنها قد انتقلت إلى عالم آخر، أو أنها فى ثورة جنون، أو فى حالة مرض، فيهمس فى أذنها :

– مارى.. ما بك ؟!

فتجيبه فى صوت متقطع حزين بكلمة واحدة هى «أحبك». ثم يشعر بأن قلبها اشتد خفقانه إلى حد يقلقه ويجعله يعتقد أن هذا القلب ينشد أنشودته الأخيرة.

لقد صارت حياتها سلسلة مظاهر متناقضة : فهى حزينة فرحة ، ثرثارة صامتة، ضاحكة باكية، إنها ترغب فى الحياة، ولكنها تخشى الموت، وتذكره قليلا حتى تخور قواها وتردد قولها: «أنا خائفة، أنا خائفة».

ويبذل الشاب جهده لإعادة الطمأنينة إلى نفس الحبيبة المضطربة، فيحدثها أحيانا عن الله والسماء والدين والصلاة، ويعلم منها أنها تذهب من وقت إلى آخر للصلاة فى كنيسة المادلين، ولكنها تختار الوقت الذى تكون فيه الكنيسة خالية من المصلين كيلا تثير استهزاء الناس، وقبل أن تدخل الكنيسة، تبتاع طاقات صغيرة من زهر البنفسج، وتضعها أمام الصور والتماثيل، ثم تلجأ إلى ركن مظلم، وتصلى، وتخرج من غير أن يراها أحد.

وسألته يوما: « أتظن أن الله يغفر لى ذنوبى الكثيرة»؟

ولكنه لم يجب عن سؤالها، بل راح يتحدث عن أشياء أخرى، محاولا تغيير مجرى الحديث بسؤالها عن ذكريات طفولتها فى تلك القرية، والبيت الصغير الذى نشأت فيه، وعن الحقول والعصافير والماشية فى مراعيها الخضراء هناك.

وفى ذات يوم قالت له فجأة:

– ألا تحب الأسفار ؟..إننى أجد فيها تسلية وفائدة، ألا تعرف إسبانيا؟ ما رأيك لو سافرنا إليها؟.. إنها بلاد دافئة، وسوف أستعيد صحتى هناك:

وسألته مرة أخرى:

– ما رأيك فى اشتغالى بالتمثيل؟ ألا تعتقد أننى سأصبح ممثلة مشهورة وأن النجاح سيكون حليفى على المسرح؟ وهل يساعدنى أبوك لو طلبت منه ذلك؟

وكان هو يستعمل كل لباقته للإجابة عن أسئلتها التى من هذا القبيل، محاولا صرف تفكيرها عن هذه المشروعات، لأنه لا يملك ما ينفقه فى الرحلة معها إلى خارج فرنسا، ولا يريد لها أن تشتغل بالتمثيل لأن ذلك يؤدى بها سريعا إلى القبر.

وهو إلى ذلك يفكر دائما فى الكونت ستاكلبرج عشيقها العجوز الذى اشتدت غيرته عليها وأصبحت حياتها معه أشبه بالجحيم، بعد أن فطن إلى أنها لا تحب فيه إلا ثروته التى ينفق منها عليها بغير حساب، فى حين تمنح منافسه الشاب كل حبها وإعجابها.

وكثيرا ما كان الكونت العاشق العجوز يثور عليها، ويتهمها صراحة بأنها تخونه مع دوماس الابن، فتتركه هى يرغى ويزبد كما يشاء دون أن ترد عليه بكلمة.

وفى بعض الأحيان كانت أعصابها المتعبة لا تتحمل تهديده ووعيده فتقطع عليه كلامة قائلة :

– نعم يا سيدى، هذا هو الواقع؟ إننى لا أحب إلا هذا الشاب، وإذا شئت أن تسترد ما أهديت إلىَّ من جواهر وحلى

وغيرها، فهى رهن إشارتك، وهنا كان العاشق العجوز الثائر، يهدأ فجأة، ولا يسعه إلا السكوت والاستسلام.

وهكذا لم تكن حياة مارى فى هذه المرحلة، إلا صفحة من حياة المجتمع الباريسى الفاسد فى ذلك العصر : غانية مريضة يتجاهل مرضها عشرات المعجبين بجمالها وظرفها، وهؤلاء جميعا يعلمون أنها لا تؤثر من بينهم غير اثنين: أحدهما الكونت الروسى الشيخ الذى يغدق عليها المال والهدايا بلا حساب، والآخر دوماس الصغير الشاب الذى تختصه بحبها الصادق الصحيح.

على أن الغيرة ما لبثت أن امتدت إلى صدر دوماس أيضا؟

لقد ضاق به الكونت العجوز لأنه استولى على قلب مارى دوبليسى عشيقته الحسناء، ولكن هذا الكونت العجوز ما زال يلازمها فى دارها وفى غدواتها وروحاتها. وما زالت هى حريصة على استبقائه بجانبها وإن صرحت له بغير ذلك أحيانا إنها لا تستطيع الاستمرار فى حياة الترف التى تعودتها إلا بمساعدته.

وهكذا ضاق دوماس بالكونت ستاكلبرج كما ضاق هذا به من قبل.

وحاول الأديب الشاب فى بادىء الأمر أن يلزم الصمت، وأن يرضى بما رضيت به الحبيبة الحسناء، فلا يظهر غيرته عليها ولا يأتى عملا يؤدى إلى انفصالها عن منافسه الغنى الذى ينفق عليها، ولكن غيرته الكامنة بقيت تشتد يوما بعد يوم حتى نفد صبره، ولم يعد فى طاقته أن يستمر فى الكتمان، فقرر أن يستأثر لنفسه بالحسناء المحبوبة، وأن ينتزعها إلى الأبد من يد ذلك الكونت الثرى البغيض، بل قرر ألا يترك حولها أحدا ممن عرفوها وعاشروها من قبله.

وسرعان ما صارحها بهذا القرار فى أول لقاء لهما بعد ذلك. فوافقت دون تردد، لأنها كانت تؤثره حقا على ذلك العاشق العجوز وغيره من العشاق.

وحرص دوماس على أن يخفى عليها حقيقة حالته المالية، كيلا تدرك أنه فقير لا يستطيع الإنفاق عليها بعد تخلى الكونت عنها، ثم استدان خمسين ألف فرنك، ودعاها إلى رحلة فى الأقاليم حيث يمضيان معا بضعة أسابيع بعيدا عن ضجة باريس وصخب مجتمعها فسارعت إلى الموافقة راضية فرحة، وكانت أيامهما فى الأقاليم هنيئة هادئة؛ فهى تمرح معه فى المروج الخضر وبين أشجار الغابات والبساتين، ويتناولان طعامهما فى الخلاء وينامان فى فنادق صغيرة متواضعة، ومن وقت لآخر، يركب العاشقان زورقا يبلغان

بـه جزيـرة صغـيرة فـى وسـط البحـيرة، حيـث ينطلقـان فـى اللهـو واللعـب هنـاك مثـل الأطفـال، وتعـود بهـا الذاكـرة إلى أيـام طفولتهـا فـى نونـان.

ثـم تسـتعرض علـى لوحـة مخيلتهـا صـور التجـارب التـى مـرت بهـا بعـد ذلـك فيفتـر ثغرهـا الجميـل عـن ابتسـامة عذبـة راضيـة، إذ تشـعر بأنهـا وجـدت ضالتهـا المنشـودة أخـيرا فـى هـذا الحـب الجديـد السـعيد، ولا يخالجهـا أدنـى شـك فـى أن المـال الـذى ينفـق منـه حبيبهـا الشـاب الأديـب الجميـل الرقيـق ليـس سـوى ديـن لا يـدرى كيـف يؤديـه.

وكانـت أحيانـا، تلتفـت إلى شـاطىء البحـيرة، وتتأمـل البيـوت الصغـيرة المتناثـرة عليـه بـين الأشـجار الوارفـة والطبيعـة الهائـدة الوادعـة ثـم تشـير إلى أحدهـا متنهـدة وتقـول لصديقهـا:

– مـا أجمـل هـذا العـش الهـادىء المنعـزل يا حبيبـى.. آه، لو اشـتريناه.. إذن لقضينـا فيـه فـترة جميلـة من عهد حبنا السـعيد.

ويذهـل العاشـق الشـاب المديـن هنيهـة، ويجاهـد لإخفـاء اضطرابـه وتلعثـم لسـانه وهـو يجيبهـا موافقـا ثـم يلاحـظ أنهـا هـى أيضـا ترتجـف لأن الريـح قويـة والـبرد شـديد، وقـد بـدأ السـعال يعاودهـا فيأخذهـا بـين ذراعيـه ويعـود بهـا فـى الـزورق إلى الفنـدق الصغـير متجاهـلا إخفاءهـا فمهـا وراء

منديلها لتخفى ما قد ينفثه من الدم صدرها المريض.

★★★

لم تنته رحلة مارى دوبليسى ودوماس الابن إلى الأقاليم بمثل ما بدأت به من مرح وسعادة؛ فقد أصيبت مارى فى نهايتها بحمى شديدة صحبها سعال لا ينقطع، وغابت عن وعيها، وأخذت تهذى فجزع عشيقها الشاب ودعا لفيفا من الأطباء لعلاجها ووقف على تمريضها كل وقته فلم يكن يفارق سريرها ليل نهار.

وعلم الكونت ستاكلبرج بمرضها فى الأقاليم فكان يرسل كل يوم أحد خدمة للاستفسار عن صحتها والاطمئنان عليها متعجلا اليوم الذى تعود فيه إلى باريس، وكان هذا يحز فى نفس دوماس ويثير غيرته عليها من ذلك العاشق العجوز، وتلاحظ هى عليه ذلك فتتحامل على نفسها لكى تهدىء من روعه وتحدثه عن أملها الكبير فى الشفاء العاجل التام، وفى أن تواصل معه الحياة الهادئة السعيدة فى الريف كلما شاء.

على أنها فى بعض الأحيان كانت الحمى تشتد عليها فتهذى، وهو إلى جوارها، متحدثة عن السهرات المقبلة وعن الأزياء الجديدة والقبعات الحديثة، وقد يمر على لسانها اسم لواحد من أولئك المعجبين بها ممن يعرفهم دوماس،

وهنا ينتفض المسكين، ويشتد قلقه، فيمضى فى الحجرة دائرا مطرقا ويداه خلف ظهره، فإذا انتابها السعال، سارع إليها وطوقها بذراعيه ناسيا كل شىء إلا أنها مريضة وأنه يحبها كل الحب.

وكانت نوبة السعال تشتد أحيانا تطول، فيتصور العاشق الشاب أن حبيبته الحسناء لا تلبث قليلا حتى تفارق الحياة، وحينئذ كانت الدنيا تسود فى وجهه، ويحدث نفسه قائلا: «لو ماتت، فلا حياة لى بعدها وسأنتحر».

ولكنها لم تمت، بل شفيت، وعادت إلى منزلها بباريس، وأوت إلى حجرتها فيه لقضاء فترة النقاهة واستعادة قواها الخائرة، وعاد دوماس إلى الجلوس بجانب سريرها والسهر عليها.

وكذلك عاد أيضا الكونت ستاكلبرج إلى المنزل، حاملا معه من الهدايا ما لا يعد ولا يحصى، وراح يؤنب عشيقته على سلوكها ولكنها لم تعبأ به، بل جعلت تفحص الهدايا واحدة بعد أخرى : التحف والأزياء والقبعات والحلى وغير ذلك مما ملأ به الكونت حجرة الحسناء، ثم شكرته بكلمة واحدة، وأضافت قائلة، إنها تعبة وتؤثر البقاء وحدها.

وخرج الكونت بعد أن وزع النقود على الخدم، وكان دوماس ينتظر فى حجرة الاستقبال وقد نفد صبره، ولما

خـلا إليهـا بعـد ذلـك راح يؤنبهـا قائـلا:

– لسـت أطيـق السـكوت علـى هـذه الحالـة المريبـة التـى يجـب وضـع حـد لهـا.

ولـو أن غـيره قـال لهـا ذلـك لابتسـمت وأدارت لـه ظهرهـا، ولكنهـا كانـت تحـب دومـاس الابـن حبـا ملـك عليهـا كل حواسـها وعواطفهـا، ومـن هنـا كانـت تندفـع نحـوه فاتحـة ذراعيهـا، قائلـة فـى صيحـة ملؤهـا الإخـلاص والصـدق والوفـاء:

– اسمـع يـا عزيـزى، أنـا لا أريـد سـواك بعـد الآن، لا أريـد أن أعيـش إلا مـن أجلـك، ولا أن أتنفـس إلا مـن أجلـك، ولا أريـد أن أرى أحـدا مـن هـؤلاء جميعـا، سـأكون معـك حيـث تشـاء، نبقـى فـى باريـس أو نغادرهـا إلى الضواحـى أو الأقاليـم. فمـاذا تريـد أنـت؟ إننـى لا أريـد إلا مـا تريـده، وكل مـا أقترحـه أن نحتفـظ بكلوتيلـد لأنهـا وفيـة أمينـة.

ولكـن دومـاس لم يكـن يندفـع إلى الموافقـة علـى هـذه الآراء، إنـه يحبهـا مـن غـير شـك ويريـد أن يسـتأثر بهـا، ولكنـه يـدرك فـى الوقـت نفسـه أنهـا تفكـر فـى أن تصبـح زوجـة شـرعية لـه، وهـذا أشـد مـا يخشـاه، لأنـه لا يضمـن أن تكـون السـعادة مـن نصيبهمـا حينـذاك، كمـا هـى مـن نصيبهمـا الآن.

وفى بعض الأحيان كانت مارى تقول له:

– سنكون سعيدين كل السعادة، وسنقيم وحدنا بعيدا من أعين الفضوليين والحساد، ولن يبقى لأى أحد غيرك حق علىَّ بعد ارتباطنا بالزواج.

وكان هو يشعر بأنها تقول هذا مخلصة كل الإخلاص، لكنه مع هذا كان يتردد قلقا حائرا، ثم يجيب قائلا:

– سوف نفكر فى هذا الأمر، على أنى لا أحب أن أكلفك مثل هذه التضحية من أجلى يا حبيبتى.

وتكرر بعد ذلك عرضها عليه هذا الاقتراح، مصرحة تارة، ومكتفية بالتلميح تارة أخرى. وهو فى كل مرة يبدى مثل ذلك التردد والتهرب من الموافقة. فأدركت مارى أنه لا يشاركها الرغبة فى تحقيق هذه الأمنية، وكفت عن التحدث إليه فى شأنها.

ثم عادت مارى إلى الظهور فى الحفلات الساهرة الراقصة، وإلى استقبال الكونت ستاكلبرج، عشيقها الثرى العجوز القديم، فهى لابد لها من المال، وستاكلبرج ما زال على استعداد لأن يدفع بسخاء، ولكن الحياة المترفة التى تحياها تتطلب نفقات طائلة باهظة، فلابد لها من الاستعانة كذلك بآخرين من العشاق، وما أكثر من كانت تعرض كليمانس عليها أسماءهم من الراغبين فى التودد

إليها والمستعدين للتضحية بأموالهم فى هذا السبيل.

وفى إحدى الليالى، كان دوماس متربصا أمام الباب يتجسس على مارى، كما كان يفعل باريجو من قبل، ليعرف متى عادت إلى منزلها، ومع من عادت إليه، فرآها داخلة متأبطة ذراع رجل لا يعرفه، فصعد الدم إلى رأسه، وهرول راجعا إلى بيته وعيناه تدمعان، والعرق يتصبب من جبينه، وهناك تناول ورقة وكتب إليها يقول:

« عزيزتى مارى...

لست من الثراء بحيث أستطيع أن أضمن لك الحياة التى تريدينها، وليس لى أن أحول بينك وبين ما تريدين، وعلى هذا لم يبق إلا أن تنسى أنت اسم دوماس الذى لا يهمك كثيرا ولا قليلا، لأنه لا يستطيع أن يكفل لك الحياة التى ترضينها، وأنسى أنا سعادة أصبحت فى نظرى بعيدة المنال. ولست فى حاجة إلى أن أشرح لك حزنى لهذا الفراق، لأنك تعلمين إلى أى حد أحبك، فالوداع إذن، ولست أشك فى أن لديك من الفطنة ما يكفى لكى تدركى السبب الذى من أجله أكتب إليك هذه الرسالة، وعندك من دقة الشعور ورقة العاطفة ما يكفى لكى تغفرى لى».

« اسكندر دوماس»

وتلقت مارى دوبليسى هذه الرسالة فى صباح اليوم التالى، وكانت ترتدى ثوبا من المخمل الأسود وبيدها سوطها، إذ كانت تستعد لركوب جوادها فى نزهة قصيرة.

وعرفت خطه لأول وهلة فتمتمت قائلة:

– آه.. رسالة من اسكندر؟!

ولكنها جاهدت لإخفاء اضطرابها، ثم دست الرسالة فى طيات ثوبها، وقالت لعشيقها العجوز فى صوت حاولت أن يكون هادئا، ينم على عدم الاكتراث:

– لا شىء.. هيا بنا.

ثم ركبت جوادها وانطلقت به إلى غابة بولونيا، وكأن لم يحدث شىء.

★★★

مسكينة مارى، إنها أشبه بزجاجة رقيقة معرضة للكسر فى كل لحظة ولأقل سبب، وهى تعاند الأقدار وتقاوم أعاصير الحياة، محاولة أن تتجاهل فواجع حاضرها وماضيها، وما ينتظرها من فواجع أشد وأدهى، برغم إيمانها بأنها لابد نازلة بها عما قريب.

إنها تنتحر ببطء ولكن فى غير ضجة ولا جلبة، إن الموت يقترب منها خطوة بعد خطوة، وقد بلغت الآن الثانية والعشرين من عمرها، وعرفت من الحياة وذاقت من حلوها ومرها ما لم تعرفه أو تذقه غيرها من النساء، والكونت ستاكلبرج يسايرها فى هذه الحياة الصاخبة ويمشى بجانبها فى هذا الطريق المؤدى بها إلى القبر.

وفجأة قررت مارى التخلص منه، مهما تكن العواقب، لأنها تعبت من هذا الشيخ الذى تكرهه، وأن كانت تحتاج إليه، وعندما دخل عليها ذات صباح بقبعته العالية، وعصاه وقفازه، نظرت إليه الحسناء فى كثير من الازدراء وقالت له:

– كفى يا صديقى.. كفى.. أظن أنى سأسبب لك شقاء كبيرا لو بقيت معى.. فاذهب ودعنى وحدى.

ودهش الرجل لهذه المقابلة، وأراد أن يتكلم ولكنها أدارت له ظهرها ورددت قائلة:

– اذهب، اذهب، اخرج لا أريد أن أراك هنا بعد الآن، ولا أريد أن تطرق بابى بعد هذه الساعة.

وخرج الكونت العجوز، وأغلقت الخادم الباب خلفه، لكنه وقف وأخذ ينادى: «مارى، مارى»، فلم يجبه غير الصدى.

وبقى بعض الوقت منتظرا على رصيف الشارع وهو يحدق ببصره فى نوافذ الدار، ثم ركب عربته وعاد إلى داره.

ومضت الأيام يتلو بعضها بعضا، ومارى دوبليسى يشتد مرضها وقلقها وتبرمها بالحياة المتشابهة المملة الثقيلة التى تحياها، فالوجوه التى تراها لا تتغير، وشعورها نحو أصحاب هذه الوجوه لا يتغير أيضا، إنها تقضى سهرات لا تختلف واحدة منها عن سابقتها أو لاحقتها، وهى تحاول أن تبدو مرحة لاهية، ولكن هذه المحاولات المتكررة صارت فى نظرها أشبه بالأشغال الشاقة فى السجون والمعتقلات، ولا مناص لهم من أن يجروها وراءهم أينما ساروا وكيفما اتجهوا وأيا كانت حالتهم النفسية.

عودة باريجو

وطالما حدثت نفسها بأن الرجال الذين عرفتهم لا يختلفون أيضا عن حلقات تلك السلسلة، فالرجل منهم يشبه الذى سبقه ويشبه الذى لحقه ، ولكن دوماس الابن بقى وحده فى نظرها يختلف عن كل أولئك الآخرين، برغم أنه هجرها من تلقاء نفسه وابتعد من طريقها.

وفيما هى فى هذه الحال المضطربة القلقة، بعد أن هجرها دوماس، وهجرت هى الكونت ستاكلبرج، ظهر الكونت باريجو من جديد فى الجو الذى تعيش فيه.

لقد قام بدور كبير على مسرح حياتها من قبل، وها هو ذا بعد حين يعود إلى المسرح نفسه ليعاود القيام بهذا الدور، وقد لاحظت هى أنه ما زال عنيفا فى حبه، عنيفا فى إلحاحه وأنه لم يعد يذكر من ماضيه بقربها غير انه عرف فيه السعادة التى كان ينشدها، ولهذا عاد من تلقاء نفسه ليبعث ذلك الماضى، وليعيش وإياها سعيدين.

واستقبلته مارى بالترحاب، وتركته يلازمها من جديد ليلا ونهارا بلا انقطاع، معزية نفسها كلما ضايقها ذلك،

بأن باريجو ما زال أيضا كعهدها به، بغض النظر عن كل ما يبدر منها، ويتقبل الكلمة الحلوة والكلمة الجارحة على السواء، فهى لا تتكلف مداراته، ولا تتردد فى الإقدام على أى عمل تريده ولا يريده هو، وإذا ما بدا منه ما يدل على الشكوى أو الاحتجاج فسرعان ما تسكته قائلة له بكل بساطة:

– أنت الذى عدت إلىَّ، ولم أبعث فى طلبك، فليس لك أن تشكو أو تحتج.

والواقع أن باريجو كان باقيا على ولائه لمارى برغم كل ما حدث، ولهذا حرص بعد استئناف علاقته بها على أن يتجنب كل ما أدى إلى قطع تلك العلاقة فى المرة الأولى، إذ شعر بأنه لن يطيق صبرا على فراق عشيقته الحسناء بعد ذلك.

ولم يكن هناك ما يشغل باله إلا البحث عن الوسائل التى تكفل له استبقاء مارى والاحتفاظ بها، وقد جرب كثيرا من الوسائل فعاد إلى تأنيبها ولومها على تصرفاتها التى لا ترضيه، ثم عدل عن ذلك بعد أن انتهرته وزجرته، وفكر فترة من الوقت فى العودة إلى الجيش والسفر إلى إفريقيا، على أن يصطحبها إلى هناك، ولكنه عدل عن ذلك واقترح عليها أن تتزوجه لأنه رأى أن الزواج وحده هو الوسيلة الكفيلة بإبقاء الغانية الجميلة التى يحبها فى كنفه، وفرض سلطانه عليها، وتخلصه من المنافسين والمزاحمين.

وقبلت مارى أن تصبح زوجة للكونت باريجو، ولم يكن قبولها هذا الزواج إلا بدافع من رغبتها الملحة فى الانتقام ممن عرفتهم من العشاق الكثيرين، ومن دوماس الابن خاصة، ذلك الذى هجرها من تلقاء نفسه.

وسافر العاشقان إلى لندن فى شهر فبراير، وأعجبت مارى بتلك المدينة العظيمة بعماراتها السوداء، ورائحة الشاى المنبعثة فيها من كل مكان ونسائها اللائى يسرن صامتات فى الطرقات والحدائق العامة.

وهناك تم الزواج، حيث وقفت مارى دوبليسى وباريجو أمام صموئيل كورنيل مسجل العقود، فجعل يدون فى سجله البيانات التى يمليانها عليه ثم قدم لهما فى النهاية قلما وقع به كل منهما على عقد الزواج الذى سجله دون أن يقرأ ما جاء فيه، ثم صافحا الرجل وخرجا من عنده عائدين إلى الفندق، واجتازا الشوارع الواسعة أو الضيقة، دون أن يتكلما، ودون أن يلتفت أحدهما إلى الآخر.

كانت الزوجة الشابة تحمل بيدها باقة صغيرة من زهر البنفسج فجعلت تستنشق رائحتها وتسرح نظراتها فى الفضاء، أما هو فكان يمشى كأنه تمثال يتحرك، ولما وصلا إلى الفندق. ودخلا غرفتهما، ألقى الزوج بنفسه على مقعد، واخذ رأسه بين يديه، وجعل يتمتم: «إننى لتعس إننى لتعس».

لقد رضى إدوار باريجو بكل شيء، وسكت عن كل شيء، لكى تصبح عشيقته الحسناء ملكا له وحده، وليس لها عشاق، ولكن لا شيء يثبت له أنها لن يكون لها فى المستقبل عشاق آخرون، إنه الآن يدرك خطأه ويرى الهوة التى ساق نفسه إليها.

وخلعت مارى ثيابها فى هدوء واطمئنان، ووقفت أمام المرآة معجبة بنفسها وبجمال جسدها، وأرخت شعرها على ظهرها فاسترسل إلى الأرض وراحت تشم الأزهار التى ملأت بها الغرفة منذ الصباح، ونظر إليها باريجو باهتا لاهثا، وفتح لها ذراعيه، ونسى لحظة تلك الوساوس التى انتابته فى الطريق وضم إلى صدره المرأة التى اختارها شريكة لحياته.

على أنهما ما كادا يعودان إلى باريس حتى نشب الخلاف بينهما من جديد واستأنفا العراك.

إن عقارب الغيرة تنهش صدر العاشق الذى أصبح زوجا، وهو يعتقد أن زوجته ما زالت تخونه مع من عرفتهم من عشاقها قبل الزواج، وكان ينهض أحيانا من فراشه فى ثياب النوم ويطوف بأرجاء البيت باحثا فى كل مكان عن رسائلها الغرامية، وكان يبقى فى سريره أحيانا طول النهار ولا يتحرك ولا يأكل، أما هى فكانت منصرفة إلى إعداد منزلها بحيث يتفق مع حالتها الجديدة ولقبها

الجديد؛ إذ صارت تحمل لقب « الكونتس دى باريجو».

فرسمت التاج الملكى على العربة والتحف والآنية والستائر والأثاث، وأخذت تطوف طول النهار على أصحاب المصانع والمخازن والمتاجر، وتأخذ ما تريد وتبعث قوائم الحساب إلى «الكونت»، ولا عليها بعد ذلك أن يرغى ويزبد ويعترض ويحتج، ويدفع أو لا يدفع.

وفى كثير من الأحيان كان يدخل حجرته بعد أن يضرب الكلب بسوطه لعل هذا يشفى غليله، ثم يغلق الباب من الداخل، ولا يغادر الحجرة إلا وقت الغداء.

وشعرت مارى بأن الحياة الزوجية لن تدوم بينها وبين الكونت الغيور، وخاصة بعد أن عدل عن ثرثرته وتغير سلوكه معها منذ أصبحا زوجين.

وفى ذات يوم، جاءتها كلوتيلد وصيفتها برسالة منه، فلما قرأتها وجدته يؤنبها على إسرافها، وعلى رسم اسمها مقرونا باسمه على قطع الأثاث، وعلى إقدامها على إعداد كل شىء فى المنزل دون استشارته.

وثارت ثائرتها، ومضت إليه مسرعة وصاحت فى وجهه قائلة :

– أتريد الآن أن تسترد حريتك؟ أتريد أن نفترق؟ هيا يا صديقى قل ما تريد وأنا أكتبه لك فى ورقة.

ووافق هو على ذلك، فأملاها عبارات مقتضبة تعترف فيها برغبتها فى الافتراق عنه. ووقعت عليها باسمها: مارى دوبليسى.

وهكذا اختفى إدوار دى باريجو من حياتها مرة أخرى؟

والواقع أنها لم تشعر بالحب الصادق نحو باريجو لا قبل الزواج ولا بعد الزواج، على أنها كانت قد اغتبطت بأن يكون لها زوج وأن يكون هذا الزوج من النبلاء يحمل لقب كونت، وتحمل هى لقب كونتس، ولكن الحلم الذى تحقق أصبح من جديد حلما كأنه لم يتحقق ولم يدم حملها اللقب المحبوب إلا فترة قصيرة من الزمن.

وبعد رحيل باريجو، كانت تخلو إلى نفسها فى حجرتها الواسعة وتقف أمام المرآة وتخاطب خيالها فيها قائلة: «سيدتى الكونتس تفضلى»، وتتقدم إلى الأمام متخيلة نفسها فى قصر التويلرى، فى حفلة راقصة دعتها إليها الملكة، وقد وقفت الأميرات والنبيلات فى أنحاء القاعة الفسيحة لتحيتها.

وتعيش بضع لحظات فى حلمها هذا، ثم تعود إلى الحقيقة المرة أنها وحيدة فى منزلها لا سند لها ولا معين.

إن الرجال لا يزالون يترددون إليها، ويلاحقونها واضعين قلوبهم وثرواتهم على قدميها، ولكنهم يضايقونها ويثيرون في صدرها الاشمئزاز فتعاملهم بقسوة ممزوجة بالحقد وتطرد بعضهم طردا.

لقد ذاقت من الحياة حلوها ومرها على السواء، ولما أرادت أن تصغي إلى صوت العاطفة صدمت صدمة جعلتها تحل في صدرها الكره محل الحب.

إن كل شيء يبدو لها الآن تافها خاويا من المعنى، ولكن هذا الشعور بالخيبة يفتح أمامها باب الأمل، فتحاول من جديد أن تبحث عن السلوى وعن الحب، إنها تعلل النفس بالأمل.. وتأخذ رأس هذا الفتى الوسيم أو ذاك بين يديها، قائلة في نفسها : « هذا لم أعرفه من قبل، هذا وجه جديد فهل يكون هو الحبيب المنتظر؟».

ثم يتبين لها أنه لا يختلف عن غيره، وسرعان ما تنبذه وتتناساه كما نبذت وتناست من قبله كثيرين، ثم تضحك، تضحك من الدنيا، ومن الناس ومن نفسها.

مع فرانز ليست الموسيقى

كانت مارى ذات ليلة فى مسرح «امبيجو»، وقد جلست هناك أمام المدفأة يحيط بها لفيف من رجال الفن والأدب، وبينهم الناقد «جانان» يتحدث بصوت جهورى عن الرواية التى تعرض فى تلك الليلة، وبجانبه شاب بهى الطلعة على جانب عظيم من الجمال، خيل إلى مارى انه فتاه ملتحفة فى ثوب من المخمل الأسود، ذلك الشاب هو الموسيقى«فرانز ليست» وشعرت مارى حين تلاقت عيناها بعينى الشاب الفنان الجميل بأن سهما حادا اخترق صدرها، وبأن الدنيا تدور بها، والتفت إليها جانان، منحنيا فأدركت أن هذه التحية معناها أن الشاب الجميل يسأل الناقد عن اسمها. وخرج جانان ليست، وخرجت مارى عائدة إلى منزلها وقد خفق قلبها وانتابتها رعشة غريبة، وفى اليوم التالى زارها طبيبها كوريف، فسألته وهو يفحصها:

– دكتور... هل تعرف الموسيقى ليست؟

– أعرفه يا سيدتى... هل يهمك أمره؟

– نعم، يهمنى.

فضحك الطبيب وأردف قائلا:

– يالـه مـن شـاب سـعيد، كونـى مطمئنـة ولا تعبسـى، فأنت تعلمـين أننـى لا أرفـض لـك طلبـا، وسـيكون، وسـيكون لـك ليسـت، لأننـى سـأضعه علـى وصفـة الـدواء، ولكـن، كونـى علـى حـذر، إنـك فـى حالـة لا تسـمح لـك بـأن تطلقـى العنـان لعواطفك وحواسك، نعـم إنـك فـى حالـة قـد يـؤدى معهـا الإسـراف فـى الملـذات إلى مـوت محقـق.

فأجابت مارى :

– هذا من حسن حظى.

★★★

كانـت مـارى مخلصـة صادقـة فـى التعبـير عـن هـذا الشـعور، أى أنهـا كانـت تتمنـى حبـا يسـعدها ويـودى فـى آن واحـد بحياتهـا، كانـت تتمنـى الحـب القاتـل، كمـا تقـول، الحـب الـذى يوفـر لهـا جميـع مـا تصبـو إليـه مـن ملـذات جسـدية وارتـواء روحـى، ثـم ينهـك منهـا الجسـم وينتـزع الـروح ،

وقـد ظنـت فـى وقـت مـن ألأوقـات أن دومـاس الابـن هـو ذلـك العاشـق الـذى يسـتطيع أن يسـعدها بذلـك الحـب القاتـل، ولكـن دومـاس هجرهـا مدفوعـا بغيرتـه وترفعـه عـن البقـاء مـع امـرأة ينفـق عليهـا رجـل غـيره، فهـل سـيكون

«ليست» الموسيقى الشاب الجميل ذلك العاشق المنشود؟

بدأت علاقة مارى بفرانز ليست منذ السهرة التى جلست فيها معه يصغيان إلى محاضرة جانان، ثم جاء به الطبيب كوريف إلى منزلها، وأخذا بعد ذلك يجتمعان كل يوم حول مائدة الطعام، فكانت مارى تجلس تجاه ليست على المائدة فلا ترفع نظرها عنه ويفعل هو مثلها، ويسبح كلاهما فى بحر من التأملات وتقوم بينهما رابطة روحية فى خلال العشاء لا يقطعها المدعوون بأحاديثهم، ثم ينصرف الدكتور كوريف ومعه أولئك المدعوون تاركين ليست وحده مع الحسناء، غير عابئ بما كان بعضهم يفوه به من كلمات لاذعة وعبارات ليس فيها ما يرضى مارى وعشيقها الجديد.

إن هذا الموسيقى الشاب يخاطب روحها ويرضى حواسها فى آن واحد، إنه يجلس إلى البيانو، ويبتكر من الألحان الساحرة أشجاها وأحلاها، إنه يتخيل حبيبته سابحة بين الغيوم فى سماء الشمال، وحولها ربات الخيال والساحرات والجن، فى غابات ألمانيا وجبالها الرائعة، وتقترب منه مارى مأخوذة بألحانه، وبأناملة الناعمة التى تنبعث هذه الألحان من بينها، وبنظراته العميقة الصافية وبشفتيه الشاحبتين اللتين تقطف منهما ألذ القبلات.

وهكذا خيل إلى مارى أن حبها الجديد قد توافرت له كل أسباب البقاء، وذلك برغم مرضها الذى تشعر بدبيبه المطرد فى طيات ضلوعها، وبرغم تزاحم النساء حول الموسيقى الشاب الذى اختارته حبيبا لها.

وطالما رددت على مسامعه سؤالها إياه:

– فرانز، فرانز، أصحيح أنك رضيت بى عشيقة مدى الحياة؟

وكانت أحيانا تجثو عند قدميه وترفع إليه عينيها مترقبة إجابته عن سؤالها. وهنا يبتسم هو، ويمد أنامله فيداعب جدائل شعرها المرخاة على كتفيها، ثم يهمس إليها قائلا:

– لا تخشى شيئا يا حبيبتى، لن تعرفى التعاسة والشقاء بعد الآن، سوف أذهب بك إلى ألمانيا، إلى ويمار، حيث نعيش وسط الغابات فتشفيك رائحتها من الآلام التى تعانينها، وإذا عارض أحد إقامتنا معا بألمانيا، فسوف أذهب بك إلى تركيا، حيث لا يعرفنا أحد، إنها بلاد دافئة جميلة، وهناك نعيش بين الأشجار المثمرة والمآذن المرتفعة القائمة على شاطىء البحر.

وكانت هذه الوعود تبعث فى نفسها الفرح، فتنهض وترقص فى القاعة ضاحكة متهللة، وتتصور نفسها مع فرانز ليست فى تركيا، داخل بيت تكتنفه الأشجار، على أرائك شرقية، وقد وقف العبيد لخدمتهما.

وكثيرا ما خرجت مارى بعد ذلك مع عشيقها للطواف على المكاتب وشراء الكتب التى يصف فيها مؤلفوها رحلاتهم إلى الشرق، وما رأوه وسمعوه فى تركيا والأقطار العربية، كما أنها ابتاعت أيضا كتبا عن ألمانيا والنمسا وإيطاليا، إنها تريد أن تحقق أمنيتها التى طالما عللت بها النفس، تريد أن تبتعد عن الجو الذى عاشت فيه، والأوساط التى عرفتها.

وكان فرانز ليست لا ينى يشجعها على الرحيل معه، ويقول لها فى إخلاص وحنان:

– مارى، مارى، ما أجملك يا مارى.

واشترت حقائب صغيرة وكبيرة، وأثوابا للصيف والشتاء، ومعاطف لا حصر لها، وكان البائعون يتوافدون على منزلها لعرض سلعهم، فتختار منها ما يروق لها، ثم يجىء فرانز بعد ذلك فيختار سلعا وأدوات أخرى مما يمكن أن يفيد فى الرحلات الطويلة البعيدة.

وبقيت مارى تحلم بالبلدان التى ستزورها، بالأزهار الغريبة والورود اليانعة، والبوسفور بزوارقه ونسائه، والقرن الذهبى وحوله القصور العثمانية، وأخذت تودع الربيع فى باريس، وتقول لنفسها: « لن أستنشق بعد اليوم غير عبير الأزهار فى الأستانة».

واتفق العاشقان على أن يسافر فرانز ليست أولا إلى ألمانيا لإنجاز عقوده مع المتعهدين وتنظيم مواعيد حفلاته الموسيقية بحيث تتفق مع رحلتهما، ولإعداد كل شيء حتى لا يعكر عليهما شيء صفو رحلتهما، ثم يلتقيان بعد ذلك فى شهر فبراير سنة ١٨٤٧ بمدينة بودابست، ومنها يرحلان إلى الشرق.. إلى تركيا.

وبقى قبل سفره وهو يردد على مسمعها تفصيلات ذلك الاتفاق قائلا:

– تذكرى جيدا يا مارى.. فى شهر فبراير نلتقى فى بودابست، إياك أن تنسى هذا الموعد، سأذهب إلى ألمانيا ومنها إلى بودابست وهناك اللقاء ومواصلة السفر معا.

ثم يضيف إلى ذلك قوله:

– سأبتاع لك ثوبا شرقيا من الأسواق التركية، وستذوقين طعم الحلوى المصنوعة من الأزهار العطرة، وتضعين فى أصابعك ومعصميك مختلف الخواتم والأساور.

وحينما سافر الموسيقى الشاب إلى ألمانيا بكت مارى دوبليسى تأثرا لفراقه، وبقى عبير قبلاته الحارة يملأ أنفها بما يشبه البخور الشرقى الذى صارت تشم رائحته فى كل شيء.. منذ اتفقا على السفر إلى الشرق.

ووقفت بين الحقائب والصناديق والأكياس المكدسة فى حجرتها وألصقت جبينها بزجاج النافذة لترسل إلى الحبيب آخر تحية بيدها المرتعشة، وهو يبتعد فى عربته إلى أن اختفى عن نظرها.

وكانت الفتيات البائعات يجتزن الطريق حينذاك عارضات أزهارهن على العشاق، فرأتهن مارى كما رأت أسراب الحمام تطير فى اتجاه ميدان المادلين، والشمس تغرب فى الأفق، فتنهدت وأرخت الستار على النافذة، ثم ألقت بنفسها على مقعدها خائرة القوى، مرتعشة باكية.

لقد ذهب العشيق، ولكن الرغبة فى لقائه القريب تحيى فى نفسها الآمال، وفى فبراير تجتمع به فى بودابست، ثم يسافران إلى الشرق، حيث تنعم معه بالسعادة الكاملة هناك.

obeikandl.com

هم بالليل.. و هم بالنهار

ومضت الأيام، ونظرت مارى دوبليسى يوما فإذا دارها قد أقفرت من العشاق والمعجبين، وإذا هى لأول مرة تعيش فيها وحدها بلا أنيس ولا سمير، وأدهشتها هذه الوحدة فى بادىء الأمر وراحت تسائل نفسها:

«كيف حدث هذا ؟. ولم؟ إن قاعة الاستقبال ساكنة هادئة كأنها قبر، وليس معى فى حجرتى إلا نفسى».

ورويدا رويدا، بدأت تعتاد حياتها الجديدة وبدأت تجد فى الوحدة راحة لأعصابها المكدودة، وصدرها المريض، ولكنها بقيت تفكر دائما فى فرانز ليست، إذ كان يكتب إليها باستمرار، وكانت رسائله مفعمة بالحب والشعر والموسيقى، تفوح منها رائحة الزهور الجافة التى يطويها عليها، وفيها تفصيل المشروعات الواسعة التى أعدها لسعادتهما المشتركة فى المستقبل، وتأكيد لأنه سينفذها بحذافيرها.

وطال انتظارها، وهى على تلك الحال، وراحت تعد الأيام الباقية بالساعات والدقائق، ويخيل إليها أن الوقت يبطىء فى سيره، بل يخيل إليها أحيانا أنه لا يتحرك.

وتعـودت أن تجلـس إلى مرآتهـا سـاعات فـى كل ليلـة، وكانـت تنظـر فـى ضـوء الشـموع إلى كتفيهـا وصدرهـا وذراعيهـا ووجههـا وتتمتـم متسـائلة:

– أمـا زلـت جميلـة؟ ألسـت أبـدو الآن أنحـف قليـلا؟

إنهـا حزينـة برغـم الآمـال البعيـدة التـى تختلـج فـى صدرها.

وقـد حببـت إليهـا الوحـدة فـى دارهـا، فلم تعـد تغادرهـا ليل نهـار، إذ كرهـت أن تبـدو للنـاس فى غير المظهر الـذى عرفوه من قبـل، ولم تعـد تسـتطيع أن تتكلـف أمامهـم أنهـا فرحـة سـعيدة.

وكان أشـد مـا حـز فـى صدرها خلال هـذه الفترة مـن حياتها، أن كثيريـن مـن المعجبـين بهـا كانـوا يفـرون مـن طريقهـا، أو يحيونهـا تحيـة ليـس فيهـا ذلـك الحمـاس الـذى عرفتـه مـن قبـل، ثـم يمضـون عنهـا مسـرعين إلى غيرهـا مـن النسـاء.

نعـم، إن وجههـا يبـدو شـاحبا، ونوبـات السـعال تعاودها فى أحيـان متقاربـة، ولكنهـا لم تفقـد شـيئا مـن حسـنها وفتنتهـا، ففيـم انصـراف القـوم عنهـا، وماذا يخيفهـم منها؟ لعلهم يشـعرون بأنهـا مسـرعة إلى القـبر، وبـأن المـوت يترصدهـا لاقتناصهـا.

وتقلقهـا هـذه الخواطـر علـى نفسـها وتسـارع إلى اسـتقدام الدكتـور كوريـف وتسـأله بلهفـة:

– قل لى يا دكتور، قل لى الحقيقة ولا تُخْفِ علىّ شيئا، هل تعتقد أننى سأموت قريبا.

ويبتسم الطبيب المخلص الوفى ليهدىء من روعها، ثم يجلس على حافة سريرها، ويفحصها فى دقة وعناية، ثم يصف لها دواء جديدا، وينصح لها بأن تلزم الهدوء، وتتجنب كل ما من شأنه أن يتعب جسمها وأعصابها وذهنها، وقبل انصرافه يلتفت إليها باسما ويسألها:

– أتعدیننى بأنك ستعملين بنصائحى ؟

فتجيبه مارى بأنها ستعمل بها، ثم لا يكاد ينصرف حتى تغادر الدار على أثره لتطوف على الساحرات والدجالين، ثم تعود حاملة أدوية وأعشابا غريبة يبيعونها إياها بثمن مبالغ فيه، زاعمين أنها مجلوبة من الشرق، ويطلبون منها أن تغليها فى الماء وتشربها كل ليلة قبيل طلوع القمر، وهناك الضاربات بالرمل وقارئات الكف ومن إليهن، وقد تنبأن لها بمستقبل باهر، وبأنها ستعيش حياة طويلة مفعمة بالسعادة، وبأن هناك عاشقا ينتظرها على أحر من الجمر، ليضمها إلى صدره.

وكان الاطمئنان يعاودها ثائرا بهذه التنبؤات، فتبتاع أزياء جديدة زاهية الألوان، وتعنى بمعالجة شحوب وجهها باستعمال مختلف المساحيق، وهكذا تقضى النهار فى حركة

ونشاط شاعرة بتجدد قوتها وتحسن صحتها بفضل إرشادات أولئك المشعوذين، فاذا جن الليل وأوت إلى مخدعها، عاودتها نوبة السعال، ونفث صدرها الدم من جديد.

إن مارى دوبليسى تذوب ذوبان الشمعة التى تحترق، وخياطتها تعمل باستمرار فى تضييق أثوابها، والمساحيق لم تعد كافية لإخفاء الشحوب البادى فى وجهها، وخدها بارد كالثلج حتى أنها تخشى أن تضع يدها عليه. وشبح الموت يبدو لها منتصبا فى أركان الحجرة، أو جاثما على صدرها، أو مختبئا تحت سريرها.

وقد يذهب الشحوب عن وجهها أحيانا، وتعود الحمرة إلى وجنتيها الذابلتين، ولكنها تنظر إلى ذلك وجلة مشفقة من أن تكون هذه الحمرة العارضة نتيجة تدفق الدم الفاسد إلى رأسها.

إنها تبحث عن النسيان، فلا تجده إلا أثناء النوم، ولهذا صارت تأوى إلى فراشها أول الليل، على غير عادتها، بينما تقف كلوتيلد خادمتها الوفية الأمينة بالباب، لتصد عنها المعجبين الذين عادوا يتوافدون على المنزل، وقد وضعوا الأزهار فى عرى ستراتهم وجاءوا ليأكلوا ويغنوا ويرقصوا، فينصرفون متململين ناقمين.

ولم يعد نومها هادئا كما كان، فقد أخذ الأرق يفتح جفونها كلما أغمضها، وإذا نامت فإنها لا تنام إلا بضع

دقائـق، ثـم تصحـوا لتقـرأ، أو تراجـع قوائـم الحسـاب، أو تسجل فـى مفكرتهـا مـا يخطـر لهـا فـى شـأن الرحلـة المقبلـة التـى لا تـزال تفكـر فيهـا وتعتـزم القيام بهـا مع العشـيق الغائب.

إن العـرق يتصبـب منهـا بـلا انقطـاع لفـرط مـا تعانيـه مـن الضعـف وإلاعيـاء، ودموعهـا لا تـكاد تنقطـع هـى الأخـرى، فهـى تبكـى كلمـا خلـت إلى نفسـها وفكـرت فـى أمرهـا، بـل كثـيرا مـا تبكـى لأقـل سـبب أو لغـير سـبب علـى الإطـلاق.

إنهـا تنـام أو تحـاول أن تنـام والدمـوع تمـلأ عينيهـا، وفـى الدقائـق المعـدودات التـى تغفـو فيهـا كانـت الأحـلام تزعجهـا وتقلقهـا، فـترى خلالهـا الطبيـب البيطـرى الـذى عـالج حصانهـا وتسـمعه يقـول لهـا: إنـك مدينـة لى بثلاثمائـة فرنـك يـا سـيدتى وتـرى السـروجى وتسـمعه يطالبهـا بإلحـاح:

ـ متـى تدفعـين لى المائـة فرنـك الباقيـة لى يـا سـيدتى؟

وتسـمع دائنـين آخريـن يطالبونهـا ملحـين، وهنـا تصحـو المسـكينة مذعـورة لتعـاود البـكاء مـن جديـد.

واسـتغنت عـن طباختهـا، وجعلـت تتنـاول طعامهـا مـن صاحـب مطبـخ عمومـى يدعـى «فـوازان» فـكان هـذا الرجـل يأتى إلى المنـزل، فـى السـاعة الحاديـة عشـرة قبـل الظهـر، ثـم فـى السـاعة السادسـة، بمـا تحتـاج إليـه مـن طعـام للغـداء وللعشـاء.

واستغنت أيضا عن الخادم الذى كان مخصصا لاستقبال الزائرين وتوديعهم ولشراء حاجاتها من السوق، وفكرت فى الاستغناء عن إتيان الحوذى، وعن كلوتيلد وصيفتها، ولكنها عدلت عن ذلك لأن إتيان وكلوتيلد، أثبتا أنهما وفيان لها، يتفانيان فى خدمتها، ولا يطالبان بأجرهما المتأخر منذ شهور.

ومن يقوم بخدمتها إذا ما ذهب إتيان وذهبت كلوتيلد ؟

ولم تكن كلوتيلد تشك فى أن عشيقا جديدا سيجىء ويدفع ديون سيدتها، وعلى هذا لجأت إلى المال الذى اقتصدته لنفسها وحفظته فى صندوق صغير لتدفع منه حساب الدائنين اللجوجين، ولكن هذه الحملة استمرت أكثر مما كانت تظن، وشعرت فى النهاية بأنها فرطت فى حق نفسها، وكان أولى لها أن تبقى على مالها المدخر دون أن يؤثر ذلك فى إخلاصها لسيدتها، بدلا من أن تصبح دائنة لها مثل غيرها.

وحدثتها نفسها يوما بأن تطالبها هى الأخرى، بما دفعته عنها من الديون فكتبت بذلك ورقة قدمتها لها فى ذات يوم، وقالت فى نهايتها:

- إذا كان فى إمكان سيدتى أن تعيد لى شيئا من هذا الدين، كنت لها شاكرة.

وضحكت مارى دوبليسى من هذه الحالة التى وصلت إليها وشر البلية ما يضحك؛ فأصحاب الديون يحاصرون

البيت ويملئون حجراته فى النهار. وهى تروح وتجىء بينهم، ترضى هذا بعبارة ناعمة، وترضى ذاك بكتابة صك على نفسها تتعهد فيه بأن تدفع الحساب فى موعد يحدده، ثم تنسى بعد دقائق ذلك العهد الذى لا تفكر فى الوفاء به.

إنهم جميعا يحملون معهم قوائم حساب لا تراجعها مارى، ولا يهمها أن تكون مطابقة أم غير مطابقة للواقع، فالذى سيدفع هذه الديون هو العشيق المقبل – عشيق الجيب – لا فرانز ليست عشيق القلب.

وفى كل صباح تمتلىء مقاعد القاعة الكبيرة بالدائنين والدائنات، فى انتظار خروجها من حجرتها وبينهم : المسيو ريفلون بائع الفراء فى ثوبه الزاهى، والمسيو سيرف بائع الأزياء، والمسيو بيشون زميله ومزاحمه فى التجارة والتحبب إلى مارى، ومدام دوهى صانعة القبعات، والآنسة بوارو وزميلتها مدام آمابل، وغيرهما من خياطات باريس الشهيرات، وهناك أيضا الساعاتى، وصانع الأحذية، والغسالة، والحلاق، وغيرهم، ومحضر جاء يسلم الحسناء إعلانا من أحد الدائنين.

وما تكاد مارى تغادر حجرتها حتى يسارع إليها مسيو شابرون صاحب المخزن الكبير الذى بلغ دينه رقما قياسيا، وقال لها فى صوت متهدج:

– آه يا سيدتى، إننا فى حاجة إلى هذا المال... فى حاجة ملحة أقسم لك وإلا ما كنا نطالبك أبدا..

وجميع هؤلاء الدائنين لا يقبضون غير الوعود، وبعضهم يكتفى بابتسامة حلوة أو بتقبيل اليد الناعمة، وبعضهم يهدد ويزمجر، فتوقع الحسناء لكل منه على صك جديد.

ومن وقت إلى آخر، تجد مارى دوبليسى فى يدها بعض المال، جاءها من أحد العشاق المعجبين، وهنا تسارع إلى الأسواق لابتياع ما تحتاج إليه، وقد تسدد حساب واحد أو أكثر من الدائنين ولكنها تشترى سلعا جديدة من خمسة آخرين ولا تدفع لهم شيئا لأنها لا تستطيع العودة إلى البيت دون أن تشترى بعض ما يعجبها من السلع المعروضة فى السوق، من قبعة جديدة، ومنديل مطرز، وساعة صغيرة، وسلسلة ذهبية بديعة.

وهكذا كاد عدد الدائنين يتضاعف كل أسبوع بدلا من أن ينقص، وارتفعت أصواتهم بحيث أزعجت أذنى الحسناء التى لم تعد تطيق صبرا على سماعها، وقالت لنفسها يوما: «ليس هناك غير الرحيل، إنه وحده السبيل المؤدى إلى التخلص من هؤلاء الدائنين».

وفى اليوم التالى، غادرت مارى باريس، على ألا تعود إليها إلا قبيل موعد الرحيل إلى بودابست للقاء فرانز ليست.

فى بروكسل

سافرت مارى دوبليسى إلى بروكسل، وهناك اتخذت لنفسها عشيقا هو أغرب من عرفتهم فى حياتها من العشاق.

كان شابا من أسرة معروفة، أشقر الشعر، أنيق الملبس، له صلات بكثير من أفراد الأسرة المالكة ورجال الحاشية، وقد علق بها قلبه، لكنه كان لا يريد أن يعرف أحد بأمر علاقته الغرامية بها، فإذا خرج معها حرص على أن يخفى وجهه خلف يديه كلما وقعت عيناه على أحد من معارفه، وإذا ما عاد معها فى عربتها المملوءة بالأزهار، ورآها تحيى الناس أو سمعها ترفع صوتها بالغناء، فإنه ينزوى خجلا فى ركن العربة ويهمس فى أذنها قائلا: «لا لا يا مارى... لا... هذا لا يليق؟ هذا لا يليق».

على أنها لم تكن تأبه لاحتجاجه، ولا تعبأ بامتعاضه، بل تواصل الغناء وترد تحية الصبيان الذين يركضون حول العربة للتفرج عليها، وأفكارها سابحة فى عالم آخر – فى عالم ليس فيه غير رجل واحد تتوق إلى لقياه.. فرانز ليست.

وأرادت يوما أن تعاكسه وتمعن فى المعاكسة، ففرضت عليه الذهاب معها إلى حفلة ساهرة رسمية، أقيمت فى ١٦

يونيو بمحطة المدينة التى حولت إلى قاعة للرقص، وظن العاشق الخجول أن ساعته الأخيرة قد دنت، وتردد فى إجابتها إلى هذا الطلب العجيب.

وكانت الحفلة لمناسبة افتتاح أول خط للسكك الحديدية فى بلجيكا، وسكان العاصمة جميعا سيذهبون إليها أو يصطفون على جانبى الطريق وسوف يرونه ولا شك ويرون الحسناء متأبطة ذراعه.. بل إن الملك ليوبولد الوقور سيحضر الاحتفال، والملكة لويز أيضا ستحضره، والحاشية كلها والوزراء والحكام والمواطنون ورجال الجيش.. فكيف يكون شأنه إذا وقعت عليه كل هذه العيون وهو معها؟

ولكن الحسناء المحبوبة تريد، ولا مرد لإرادتها، فإما الذهاب إلى الحفلة الرسمية وإما فراق لا لقاء بعده، وهكذا اضطر العاشق إلى القبول، فذهب معها إلى الحفلة واختلط بذلك الجمع الحاشد، وبأولئك الرجال والنساء، وظل صامتا لا يخاطبها، واكتفى بأن يقدم لها ذراعه فتأبطتها ومشت معه جنبا إلى جنب، وهى رافعة الرأس ضاحكة، وهو مطاطىء الرأس واجما وجوم المحكوم عليهم بالإعدام، وكان العرق يتصبب من جبينه، وحمرة الخجل تعلو ذلك الجبين.

واخترقت مارى دوبليسى الصفوف بهية ساطعة الحسن، وانحنت الرؤوس أمامها على الجانبين وابتسم لها الرجال

إعجابا، وحياها الذين يعرفونها والذين لا يعرفونها، وشخصت إليها الأنظار من كل صوب لأنها كانت فى تلك الليلة أكثر بهاء وسناء منها فى كل ليلة سابقة.

وقد زال عنها الشحوب وهادنها السعال، وكانت كلما ازدادت يقينا من إعجاب الناس بها ازدادت احتقارا للعاشق الذى يرافقها ويخجل من الظهور معها، وبلغ احتقارها له فى النهاية درجة الاشمئزاز.

وفجأة ، وقع نظرها على جول جانان، الكاتب الناقد وصديقها القديم فى باريس، وكان منتحيا أحد جوانب القاعة الفسيحة يرقبها من بعيد ويشير لها إشارة مشفوعة بابتسامة رقيقة، وظن جانان أنها تؤثر ألا يخاطبها أو يقترب منها فظل بعيدا، ولكنها سارعت إليه فاتحة ذراعيها وقالت بلهجة مفعمة بالسرور :

– آه يا عزيزى جانان، إنها لمفاجأة حلوة.. لنرقص إذن معا رقصة « الفالس» هذه.

وسرعان ما أحاطت كتفه بذراعها، وأحاط هو بذراع خصرها، ثم انطلقا يرقصان..

وانتقلت مارى دوبليسى من ذراع إلى ذراع، ومن رقصة إلى رقصة، ونسيت الرجل الذى رافقها إلى تلك السهرة، وخرجت من الباب دون أن تلتفت إلى أحد.

فى مدن الاستشفاء

وغادرت مارى بروكسل إلى مدينة سبا المشهورة بمياهها المعدنية. وهذه المدينة أشبه بقرية كبيرة ببيوتها من الحجارة، وبجوارها تل مرتفع تكسوه الأزهار، والشمس تغدق أشعتها بلا حساب على ذلك كله، فتحرق المرضى بحرارتها، وفى الساعة الرابعة مساء، يسدل الظلام ستاره على المدينة فتبدو أشجارها كأنها غابة كثيفة من الظلال، وفى الفنادق والعيادات والمصحات، جموع لا تحصى من الرجال والنساء، بعضهم مرضى وأكثرهم يظنون أنفسهم كذلك واهمين، وقد هرعوا جميعا إلى سبا ليعالجوا أمراضهم الحقيقية أو الوهمية بالمياه المعدنية، وهناك يختلط بهذه الجموع الحاشدة، لفيف من الأطباء والمشعوذين والممرضين وبائعى العقاقير وأصحاب الفنادق والحوانيت، وهناك أيضا الغانيات اللواتى جئن لاصطياد الرجال لا للاستشفاء، والخياطون وصانعو الأزياء والأحذية والكتاب والشعراء، والذين لا يعرفون لماذا جاءوا، أمن أجل أنفسهم أم من أجل آخرين.

ذلك هو الوسط المختلط الغريب الذى ألقت مارى دوبليسى بنفسها فى غمرته، وهى لا تدرى أفعلت ذلك

لأنها مريضة؟ أم لأنها تسعى إلى رجل ينتشلها من ورطتها؟ أم لأنها فرحة سعيدة، أم لأنها مضطربة يائسة؟

غير أن وصولها إلى المدينة ذاع خبره بسرعة البرق، وتناقلت الألسنة اسمها من فندق إلى فندق، ومن حانوت إلى حانوت، وكان أصحاب المخازن يقفون على أبواب مخازنهم يرقبون مرورها لتحيتها ودعوتها للدخول، والأطباء يفحصونها بلطف وظرف ودقة، وأصحاب الفنادق يتسابقون إلى التودد إليها، ويقدمون لها من ألوان الأطعمة ألذها، وكل منهم يؤكد لها أن طباخه فرنسي من باريس، والحقيقة أن الطباخ ألماني يدعى المهارة في إعداد الألوان الفرنسية الشهية.

على أن مارى كانت قد وصلت إلى مدينة سبا خائرة القوى، في حاجة إلى الراحة، ولم يكن يصحبها في هذه المرة أحد من الرجال، وكانت تظن ألا أحد يعرفها في المدينة، ولكنها فوجئت بتلك المظاهرات غير المنتظرة، وخيل إليها أنها عادت إلى باريس، فهي لا تخرج من فندقها إلا مصحوبة بجماعة من المعجبين الذين ينتظرونها في الخارج منذ الصباح. وإذا مرت في الشارع فإنها تجتازه بين صفين من الناس الذين سمعوا بقدومها وأرادوا أن يمتعوا النظر برؤيتها، وإذا جلست إلى المائدة لتناول الطعام يختلسون النظر إليها.

وأرادت أن تتخلص من ذلك كله لأنها كانت راغبة رغبة صادقة فى الراحة والاستجمام، فلم تحاول أن تخاطب أحدا، ولم يصدر منها ما يشجع أحدا على مخاطبتها، ولزمت الصمت وامتنعت عن النظر إلى الناس، بل صارت تتهرب منهم وتتجنب أنظارهم، وانتهى بها الأمر إلى الامتناع عن تناول الطعام مع النزلاء الآخرين، فصارت تأكل فى حجرتها، وتبحث عن ركن منعزل تجلس فيه وبيدها كتاب تطالعه، ولكنهم استمروا فى مطاردتها واللحاق بها فى كل مكان تلجأ إليه، واكتنفها حسد النساء الأخريات فصرن يكدن لها فى الخفاء وسلقنها بألسنة حداد، وهكذا ما لبثت قليلا فى مدينة سبا حتى عاودها شعور التبرم والضيق، شأنها فى بروكسل وباريس، وفكرت فى مغادرة هذه المدينة التى لا تطاق، ولكن الأطباء الذين كانوا يعالجونها رفعوا أصواتهم محتجين قائلين:

– كيف هذا ؟.. أتذهبين فى الوقت الذى تشرفين فيه على الشفاء؟ان مياه سبا ستعيد إليك الصحة والعافية والنشاط، ولابد لك من البقاء هنا فترة أخرى من الزمن.

وأعاد هذا القول إلى نفسها الطمأنينة، وأحيا فيها ميت الآمال، وتغلبت فى صدرها الرغبة فى الشفاء على الرغبة فى الراحة، فقررت البقاء وجعلت تشرب من المياه المعدنية ما لذ للأطباء وطاب.

★★★

وعاودتها الصحة شيئا فشيئا، وأدركت أن الأطباء لم يكذبوا عليها ولم يخدعوها، وصارت تعرف من جديد طعم النوم الهادىء الهنىء، ولكن قوائم الحساب لحقت بها إلى مدينة سبا، فجعلت تكتب إلى الدائنين فى باريس مسترحمة راجية منهم أن يمهلوها نصف شهر حتى تسترد صحتها، ولكنهم صموا آذانهم عن الاسترحام والرجاء، ولم يلزم الصمت من بينهم غير واحد فقط، هو طونى تاجر الخيول، لأنه كان يحبها ويطمع فى أن يتخذها خليلة له مقابل الدين الذى عليها، أما الآخرون، فإنهم أرسلوا إليها خطابات التهديد وإعلانات على أيدى المحضرين إلى الفندق الذى تقيم فيه، وانضم إليهم المتعهدون والبائعون فى المدينة، وجربت مارى حظها فى اللعب مرة أخرى، على أمل أن تربح ما يكفى من المال لسد الديون، ولكنها خسرت ولم تربح.. خسرت كل شىء، ولم يبق فى جيبها ما تدفع به أجر الحوذى من الكازينو إلى الفندق، فطلبت من رجل لا تعرفه أن يصطحبها إلى هناك.

واندفعت من جديد فى غمرة الملذات، وقد تولاها الاشمئزاز من العالم، وتمنت أن لو امتدت إليها يد الموت لتريحها من هذه الحياة، ويحمل الفلاحون جثمانها إلى المقبرة القائمة فى ضواحى المدينة ليدفنوها هناك تحت الأشجار.

إن فرانز ليست يكتب إليها باستمرار، ورسائله المقتضبة تتضمن أخبار رحلته، وهو يختم كل رسائله هذه بعبارة واحده لا تتغير « كونى صبورة... انتظرى... فكرى فى حدائق الأستانة وبساتين تركيا... إننى عائد إليك لنستأنف السفر معا إلى جنان الشرق».

إذن عليها أن تنتظر.. ولكن هل هذا فى وسعها؟ وهل يتاح لها أن تبقى على قيد الحياة إلى أن يعود الحبيب الغائب؟ إنها تشعر بأن حياتها لن تمتد إلى ما بعد فصل الصيف، وإن هذه الأيام التى تقضيها فى مدينة سبا آخر أيام حياتها.

ومع ذلك، فإن صحتها تبدو أحسن مما كانت فى أية فترة من حياتها، والذين يرونها ممتطية صهوة جوادها، تجتاز شارع سبا الكبير وتطلق للجواد العنان، وتمرح به بين المروج، لا يعتقدون ولا يتصورون أن مارى دوبليسى مشرفة على الموت، أو أنها تشكو ضعفا أو إعياء.

إنها رائعة الحسن والجمال، براقة العينين، ممشوقة القامة، موردة الخدين.. ولكن هذه كلها ظواهر كاذبة، برغم أنها تصحو من النوم مبكرة وتخرج إلى الخلاء على جوادها فى ثوبها الزاهى، وبيدها سوط وبجانبها ذلك الإنجليزى الذى أوصلها إلى الفندق منذ أيام وأصبح عشيقها منذ ذلك اليوم.

وهى لا تحبه لكنه ينفق عليها وينقذها من التفكير فى الناحية المادية التى طالما شغلت بالها، ولهذا تضحك من جديد وتنثر الضحك حولها وتصبح ملكة المجتمع حيثما وجدت. ثم تعود إلى الفندق لتبكى قبل أن تأوى إلى الفراش.

وفى إحدى الليالى، كانت ترقص مع عشيقها هذا فرحة مرحة، وإذا بها تسقط على الأرض والدم ينفجر من فمها، وتوقف الموسيقيون عن العزف، وبادر أربعة من الخدم فحملوا تلك الدمية الآدمية بين أيديهم إلى حيث أسعفت بالعلاج.

★★★

رحلت مارى عن سبا فى اليوم التالى، وتوجهت إلى مدينة بادن، ثم إلى مدينة سبادن، فمدينة ايمس، وقد رحلت وحدها لا يصحبها غير وصيفتها كلوتيلد وإتيان حوذى عربتها، فقد انصرف ذلك العشيق الذى رضيت به على كره منها خلال إغمائها عقب الرقص ولم تره بعد ذاك.

وكان أول ما تفعله مارى، عندما تصل إلى فندق لقضاء يوم أو أكثر فيه، أن تدعو الطبيب لاستشارته، وتطلب إعطاءها أغطية من الصوف وإشعال المصابيح فى حجرتها، وهكذا مر أمام سريرها لفيف من الأطباء الذين لا تعرفهم، بينهم اللطيف وبينهم السمج، وكل منهم يترك لها وصفة بدواء جديد، ويقبض أجره وينصرف.

إنها تشعر بدنو ساعتها، والموت يخيفها، ولهذا تخشى البقاء وحدها فى الحجرة وتنطلق إلى الطريق.

وكانت كلوتيلد تلازمها فى تلك الرحلة الطويلة، وتسهر عليها وتحاول تخفيف آلامها وهى رفيقتها الوحيدة فى الليالى المظلمة الموحشة، تحدثها عن كل شىء يخطر ببالها، لكى تسرى عنها وتنسيها ما هى فيه من شقاء، ولكن كلوتيلد تعبت فى النهاية من هذا السهر المستمر، فصارت تنام أحيانا متكئة على حافة السرير، فترى مارى حينذاك، فى أنحاء الحجرة، أشباحا مرعبة تعدو وتسخر منها وتحوم حول فراشها، فتصرخ مذعورة لإيقاظ وصيفتها النائمة.

وحدث مرة أن كانت إحدى هذه النوبات العصبية شديدة إلى حد خافت معه كلوتيلد على حياة سيدتها، وعندما استعادت مارى حواسها، طلبت قلما وورقة، وكتبت هذه الكلمات :

« إننى وحيدة فى مدينة أيمس، أرجو أن تسامحنى. أسرع الوداع».

وأعطت وصيفتها هذه الورقة طالبة منها أن ترسلها بعد أن تكتب العنوان، فسألتها كلوتيلد :

– إلى مسيو فرانز ليست يا سيدتى؟

فقالت لها : « لا » فعادت تسألها : «إذن، إلى مسيو دوماس ؟»، ولكن مارى قالت لها : «كلا يا كلوتيلد.. بل إلى زوجى».

obeikandl.com

العودة إلى باريس

نحن الآن فى الخريف، وقد أخذت باريس تفقد أزهارها وأوراق أشجارها، والليل يقبل مسرعا فيودع الناس مقاعدهم على أرصفة الشوارع وفى غابة بولونيا بينما الضباب يسدل ستاره على المنازل والطرقات.

وفى ذلك الجو عادت مارى دوبليسى إلى العاصمة التى شهدت صعودها إلى قمة الشهرة والمجد، ووجدت منزلها فى انتظارها، بما يحويه من أثاث وما تركته فيه من حقائب جديدة معدة للرحلة المنشودة فى الشرق، ووجدت الكلب الأمين « تومى» الذى جعل يقفز من الفرح ويشد أطراف ثوبها بأسنانه فجلست على الأرض كما كانت تفعل فى ساعات الخلوة، وضمت إلى صدرها فى حنان وتقدير ذلك الصديق الوفى الأمين.

وفيما كانت كلوتيلد مشغولة بإعداد حجرة النوم، نهضت سيدتها وتوجهت إلى حجرة الزينة، وهناك وجدت كتابا مفتوحا ملقى على المقعد الطويل، وقد علاه الغبار، فتذكرت أنه أحد الكتب التى اشترت عشرات منها لتطالعها استعدادا لرحلتها إلى الشرق، فرفعته بيدها، ونفضت الغبار

الذى علق به، وراحت تعيد قراءة الفصل الذى كانت قد تركته قبل أن تتم قراءته.

«إن المآذن والقباب تبدو تحت أشعة الشمس كأنها شعلة من نار، واليمام يغرد على أفنان الأشجار، وفى تلك الساعة تهبط النساء التركيات من المدافن عائدات إلى المدينة، وفى أنحاء الأستانة، يسمع صرير الأبواب الحديدية تفتح لتدخل كل سيدة إلى خدرها». فألقت الكتاب جانبا ونادت وصيفتها وقالت لها:

– اشعلى الخشب فى الموقد.. أسرعى.. إننى ارتجف من البرد، أسرعى.

وجعلت تروح وتجىء فى القاعة وهى تدق كفا بكف، وتقف من وقت لآخر أمام المرآة لتلقى نظرة على صورتها المنعكسة عليها، وترسل الزفرات فى حسرة وحيرة واضطراب.

لم يكن فى البيت ما يكفى من شموع لإنارة الغرف كلها، وقد خرج إتيان لشراء بعضها من السوق، ثم لحقت به كلوتيلد لتشترى بعض الخشب لإشعال النار فى المدفأة، ولبثت مارى وحدها تنتظر عودتهما ضائقة الصدر فى البرد والظلام.

وخيل إليها أن الدقائق التى مرت منذ خروجهما تزيد على ساعة، واشتدت بها الوساوس والهواجس فهرعت إلى

النافذة متلمسة طريقها إليها فى الظلام، فلما بلغتها بعد جهد، ألصقت وجهها بزجاجها، وجعلت ترقب الشارع، فلا تكاد ترى فيه إلا أشباح بعض المارة الذين يجتازونه إلى بيوتهم وفى أيديهم المصابيح.

ولكن هذا كان كافيا لتهدئة روعها، ولبثت كذلك دقائق شغلت خلالها عن نفسها بتصورها العاشقين اللذين لم تعشق غيرهما: اسكندر دوماس وفرانز ليست.. ومرت عربة على أثر ذلك، ثم انطلق صوت عال لأحد المتسولين مستجديا الرحمة والإحسان. فبغتت وتولتها رعدة شديدة، ثم أخذت تبكى، وتسعل وأفاقت لنفسها وهى ما زالت واقفة خلف النافذة، ترتعد خوفا وقلقا وتتمتم رافعة وجهها ويديها إلى السماء، ثم تدعو الله قائلة:

– يا رب.. ارحمنى يا رب.

وسارعت إلى معطفها فتدثرت به ثم غادرت الدار فى سكون الليل ومضت تتلمس طريقها إلى الكنيسة لتواصل صلاتها وابتهالاتها هناك.

★★★

عاد الدائنون إلى منزل مارى فى باريس منذ صباح اليوم التالى ليوم وصولها إلى باريس وهم يدخلون فى هذه المرة

بـلا اسـتئذان، ويتخـذون مجلسـهم فـى قاعـة الاسـتقبال منـذ السـاعة السـابعة بينمـا تكـون مـارى جالسـة فـى مخدعهـا، وبيدهـا قـدح مـن اللـبن، ووصيفتهـا تهمـس فـى أذنهـا قائلـة:

– إنهـم يظهـرون الآن بمظهـر العظمـاء المنتصريـن، وإذا اقـترب منهـم الكلـب فإنهـم لا يداعبونـه كمـا كانـوا يفعلـون مـن قبـل، بـل يركلونـه بأقدامهـم وهـم الآن ينظـرون شـزرا إلى أزهـار الكاميليـا التـى تزيـن القاعـة، ويتحسسـون قطـع الأثـاث ويفحصونهـا علـى أمـل أن تصبـح كلهـا أو جلهـا مـن نصيبهـم فيمـا بعـد، متـى حان يـوم الدفع وتصفية الحسـاب، وإن بعضهـم ليمـدون أيديهـم إلى الشـعائر أو يتناولـون التحـف المتناثـرة هنـا وهنـاك ليعرفـوا أصلهـا ويقـدروا ثمنهـا، وقـد يبقـى أحدهـم وقتـا طويـلا فـى مقعـده فينـام فـى انتظـار خـروج الحسـناء مـن خدرهـا، وكثـيرا مـا يوجـد بينهـم دائـن شـاب تعجبـه الوصيفـة فيبسـم لهـا أو يغمـز بعينيـه لهـا...

وكلمـا فتحـت الحسـناء بـاب مخدعهـا، وخرجـت منـه، مـرت أمـام هـذا الجيـش مسـتعرضة وحداتـه، وقلبهـا يخفـق ويداهـا ترتعشـان، فتنظـر فـى قوائـم الحسـاب التـى تحملهـا كلهـا واحـدة واحـدة وتخاطـب هـؤلاء الدائنـين كلا منهـم بلهجة تليـق بـه، فتقـول لأحدهـم:

– هـذا فظيـع يـا سـيدى، هـذا كثـير، إن هـذه الأثمـان ليسـت معقولـة.

وتقول لآخر :

– أرجو أن تنتظر بضعة أيام أخرى يا سيدى.

وتقول لثالث:

– ألا تصدق أننى سأدفع هذا الحساب بعد غد؟..

وقـد تقـول لهـم جميعـا : « أؤكـد لكـم جميعـا أننـى لـن أتـردد عندمـا يجـىء الوقـت المناسـب فـى دفـع حسـاباتكم بـلا نقصـان.. صـبرا، صـبرا أيهـا السـادة حتـى تتحسـن الأحـوال».

ولكـن الذيـن كانـوا يكتفـون بالوعـود مـن قبـل، أصبحـوا بعـد أيـام أخـرى أكثـر لجاجـة وإلحاحـا مـن زملائهـم الآخريـن.. إنهـم يريـدون أموالهـم ويطالبـون بالدفـع فـى الحـال، وإلا فهـم يهـددون ويتوعـدون ولا يقبلـون وعـودا ولا معاذيـر.

وتفـزع الغـادة المريضـة الوحيـدة مـن هـذا التهديـد ولا تطيـق التحدث إلى القوم فتدعهم وشـأنهم، وتعود إلى حجرتها، أو تشـق طريقهـا بينهـم وتخـرج إلى الشـارع، تاركـة لهـم البيـت ومـا فيه.

ولكنهـا تصطـدم عنـد البـاب الخارجـى بالبـواب العجـوز، المسيو بريفيـه، الـذى اسـتدانت منـه ثلاثمائـة فرنـك ولم تدفعها

لـه بعـد، فينتهـز الرجـل هـذه الفرصـة ليطالبهـا بفرنكاتـه الثلاثمائـة، لأنـه فـى حاجـة شـديدة إليهـا.

وتقـف مـارى هنيهـة وهـى تحـدق فـى البـواب العجـوز، ثـم تلتفـت إلى إتيـان حـوذى عربتهـا وتصيـح بـه قائلـة:

– إتيان، هيا بنا.

ثـم تصعـد إلى عربتهـا دون أن تلتفـت، ويصعـد إتيـان إلى كرسـيه، ويرفـع سـوطه، فينطلق الجواد بالعربـة إلى غابة بولونيا.

★★★

إن مرورهـا فـى طرقـات تلـك الغابـة مـا يـزال يحـدث الأثـر الـذى طالمـا أحدثـه مرورهـا هنـاك فى الأيام السـابقة، فالسـيدات الباريسـيات، وجماعـة الدانـدى المتحذلقـين، وأصحـاب جيـاد السباق، والكتاب والشعراء والنبلاء ممن عرفوها وممن لم يعرفوها، كلهـم يلتفـون حولهـا: هـذا يسـأل: «من هـذه الغانيـة الهيفاء؟»

فيجيبـه ذاك قائـلا: «كيف؟ ألا تعرف مارى دوبليسـى؟...».

ويقول ثالث: «كنت أظنها قد ماتت»

وتوقـف مـارى عربتهـا فـى ركـن مـن تلـك الأركان الهادئـة التـى تعـرف طريقهـا، وتنـزل لتخطـو بضـع خطـوات بـين الأعشـاب والرياحـين، وتفتـح صدرهـا لهبـات النسـيم فتستنشـقه

وتسكر به كأنه خمر معتقة، ثم توغل بين الأشجار كيلا تصل إليها أعين الرقباء، وتستلقى على الأرض وتغمض عينيها وتشعر أنها – لبضع لحظات – قد انتقلت إلى النعيم؟ وهنا تذكر أياما سعيدة خلت، تذكر اسكندر دوماس، ونزهاتها معه فى ذلك المكان، وكيف كان الكاتب الشاب العاشق يجرى وراءها ويضمها إلى صدره ويسكرها بقبلاته.. فأين اسكندر دوماس الآن؟

إنها لا تشك لحظة واحدة فى أنه أحبها، وأنه ما زال يحبها، وقد نقلوا إليها أنه يأسف على فراقها، ويكثر من ذكر اسمها، وأن أباه يحاول عبثا أن يعزيه ويسليه باصطحابه إلى رحلات بعيدة فى البلدان الأوربية وغيرها.

وبعد أن تمتع المرأة ذهنها بصورة الحبيب الأول، تفتح عينيها لترى الحقيقة ماثلة أمامها، فتنهض وتعود بطيئة الخطى إلى عربتها، وتصعد إليها من جديد قائلة لإتيان:

– إلى الشوارع الكبرى.

إنها تشعر فجأة برغبة ملحة فى الاستماع إلى الضوضاء الباريسية فى تلك الشوارع الغاصة بالمارة رجالا ونساء، وتتوق إلى المرور أمام واجهات المخازن المضاءة، والتطلع إلى ما فيها من روائع وبدائع.

وكان الحوذى اللبق يعرف من تجاربه السابقة أى طريق تحب سيدته أن تسير فيه، فيسوق حصانه إلى أحب الشوارع إلى نفس مارى، حتى اذا ما وصل إلى شارع بواسونيير، دار عائدا إلى ميدان المادلين، ومن هناك إلى بيتها القريب.

وكثيرا ما كان إتيان يفتح باب العربة، فيجد سيدته فى الداخل مستلقية على المقعد مغشيا عليها، فيحملها بين ذراعيه، ويصعد بها السلالم درجة درجة، ثم تأتى وصيفتها المخلصة فتعاونه على حملها حتى ترقد فى سريرها بسلام.

obeikandl.com

كبش الفداء

أصبحت الحالة لا تطاق، ولم يعد بإمكان مارى أن تتحمل هجوم ذلك السيل الذى لا ينقطع من الدائنين الصاخبين الساخطين، فلابد إذن من إيجاد الرجل الذى ينقذها منهم، ويكون لها بمثابة كبش الفداء ولو إلى حين.

ووجدت مارى ذلك الكبش المنشود، كشأنها كلما صح عزمها على السعى فى سبيل الوصول إلى ضالة من هذا القبيل، ولم يكن هذا العشيق الجديد سوى النبيل الجامد الجاف، صاحب الاسم الطنان والثروة الطائلة، الكونت بيير دى كاستلان، إنه قائد سابق فى الجيش، وهو يعرف كيف يخاطب الناس، ولا سيما إذا كانوا دونه مقاما وجاها وثراء، وقد خاطب الدائنين باللهجة التى أسكتتهم فدفع دين بعضهم، واستمهل بعضهم، وهدد الآخرين، والكونت دى كاستلان إلى ذلك كله خبير فى شئون النساء، يدقق فى اختيارهن، ولكن هذه الحسناء التى ألقت بنفسها بين ذراعيه ليست كبقية نساء باريس، وهى تعجبه بكل ما فيها من فضائل وعيوب، ولهذا تلقاها فاتحاً لها ذراعيه واتخذها خليلة له، وأخذ على عاتقه أيضا إصلاح حالها وتذليل متاعبها.

وبدأ الرجل ينفذ ما وعد به، فاطمأنت مارى، وعرفت الراحة والهدوء مرة أخرى، وصارت تذهب مع الكونت الكريم السخى إلى تلك الأندية والمسارح التى شاهدتها فى أوج مجدها، ولكنها لا تحب هذا الرجل، ولا تريد أن ترتبط به برابطة قوية، لأنها تدرك أن هذه العشرة لن تدوم أكثر من غيرها، وأن هذا النوع من الرجال لا يلائم طبعها ولا يكفل لها راحة طويلة، وأدرك كاستلان ذلك فتأفف وتململ وجعل يفكر فى ترك الحسناء قبل أن تمتلك قلبه، ولكنه أراد أن يباهى بها أمام الناس، فاحتفظ بها إلى حين.

★★★

وفى أثناء ذلك عادت مارى إلى بيتها ذات ليلة، بعد أن ودعت الكونت عند باب المسرح ، عادت إلى بيتها فإذا بها تجد باريجو زوجها فى انتظارها.

لقد استقال من الجيش على أثر وصول خطابها إليه، ورجع إلى باريس من أجلها، وقد توجه عقب وصوله إلى منزلها فاستقبلته وصيفتها وأدخلته إلى قاعة الانتظار حيث عرف منها ما حدث لمارى فى رحلتها الأخيرة، ومع من تعيش الآن وبقى يدور فى القاعة فى انتظار الحسناء...

وهناك وجدته مارى فاقتربت منه ساخطة وقالت له والشرر يتطاير من عينيها :

– لماذا جئت إلى هنا؟ لماذا رجعت إلى؟ إنك تعرف أننى اكرهك؟ فاضطرب الرجل، بل استولى عليه الذعر أمام الزوجة العجيبة الثائرة، ثم أخذ يبحث فى جيوبه، قائلا بصوت مضطرب:

– مارى.. مارى.. كيف.. أما أرسلت فى طلبى ؟.. ألا تذكرين.. لقد كتبت إلىَّ.. وقلت فى رسالتك : أسرع.. وقد أسرعت فى العودة والسعادة تملأ قلبى.

ولكنه لم يجد الخطاب فى جيوبه، فقهقهت مارى وأردفت قائلة:

– أنت.. وهل أنا فى حاجة إليك لكى أموت بسلام. لقد دعوتك كما أدعو خادما من خدمى..

واحمر وجهها وجحظت عيناها، وخيل للرجل أنها تختنق عندما صاحت به بعد ذلك قائلة؟

– اخرج.اخرج.ألا ترى أنك تقتلنى ببقائك هنا.. اخرج.

فابتعد باريجو مسرعا، ولما مر أمام الوصيفة توقف هنيهة وقال لها:

«سيدتك فى حاجة إلى عناية دقيقة، اسرعى إليها». ثم غادر الدار وانصرف لا يلوى على شىء.

وذهبت الوصيفة إلى سيدتها، فوجدتها ملقاة على الأرض فاقدة الوعى فانحنت الوصيفة عليها، ورفعت رأسها، ولما فتحت مارى عينيها، سألت بلهفة:

– هل ذهب؟ لا أريد أن تفتحى له الباب بعد الآن، وإذا قدر لى أن أموت، فلا أريد أن أسلم الروح إلا بين يدى رجل أحبه، أتفهمين؟ والرجل الذى أحبه ليس باريجو.. كلا، ليس باريجو.

وتنهدت الوصيفة الوفية وهى تومىء برأسها موافقة وتقول لها: « نعم ياسيدتى، نعم، اطمئنى».

تفرط عقد حياتها كما تنفرط باقة الأزهار، إن الحمى تنتابها الآن بلا انقطاع، فيخيل إليها أن الحرارة التى تملأ جسمها هى حرارة النشاط، وكان هذا الوهم يحفزها إلى النهوض والخروج فى طلب ملذات جديدة, وعرفت كيف تستخدم محاسنها لإغراء كاستلان والاحتفاظ به، فظل الرجل بجانبها، يسندها وينفق عليها ويتعب من السهر أكثر مما تتعب هى، وعندما يسأله أصدقاؤه عن مرضها يجيبهم ضاحكا: «مريضة؟ مارى، لقد رقصنا أمس طول الليل».

نعم، إن شعلة حياتها تنطفىء، ولكن هذا يضفى على هذه الحياة نشاطا وحركة غير عاديين، فراحت تواصل سهراتها مع كاستلان، فإذا إنتهت السهرة أوت إلى سريرها وقد هدها الوهن والإعياء ثم ألقت جسمها عليه دون أن تخلع ثيابها» بقيت هكذا حتى الصباح جامدة سابحة فى بحار من الأفكار السوداء.

وكان كلبها تومى يلازمها فى هذه الساعات فتداعبه وتخاطبه بقولها:

– آه، أنت الصديق الصدوق يا تومى، لا صديق لى سواك.

وفى بعض الأحيان، كانت تنهض بعد الاستراحة قليلا لتنطلق فى أرجاء المنزل، وهى تركض ركضا أو تزحف زحفا.

إنها لا تعرف ما تريد، ولا تدرى إلى أين تذهب، ولا تفهم لماذا يجفوها النعاس.. وهى يخيل إليها أنها فى صحة جيدة عندما ترى نفسها فى المرآة، ولكنها تشعر بأن صحتها ساءت أكثر من ذى قبل، وهذا ما تتحققه كلما حاولت القيام بمجهود كبير، وعندما ينتابها السعال ويتدفق الدم من فمها.

إنها حائرة فى أمرها، وقد صارت تقضى أياما عدة لا تذوق فيها طعما للنوم والراحة والهدوء، وإنها

لتتـوق إلى شـيء مـن ذلـك ولكـن كيـف؟ وأيـن السـبيل؟

★★★

فـى تلـك الفـترة مـن حيـاة مـارى دوبليسـى، رسـم صورتهـا أحـد كبـار الرسـامين فـى باريـس، بدعـوة مـن الكونت كاسـتلان عشـيقها حينـذاك.

وهـذه الصـورة فـى سـنة ١٨٤٦، ومارى فـى الثالثة والعشـرين مـن عمرهـا، وكانـت ترتـدى حينـذاك ثوبـا ناعمـا أسـود، وتضع علـى صدرهـا المكشـوف أعـلاه زهـرة الكاميليـا الحمـراء، كمـا تزيـن شـعرها بزهـرة أخـرى، وهـى فـى صورتهـا هـذه يبـدو وجههـا نحيـلا جذابـا، كمـا تبـدو عيناهـا حادتـين صافيتـين.

إن هـذه الصـورة تمثـل غـادة الكاميليـا، مـارى دوبليسـى، فى آخـر سـنى حياتهـا، وإذا حدقـت البصـر فـى وجـه الحسـناء، فإنـك لا تلبـث أن تتخيـل وراءه وجـوه الذيـن أحاطـوا بهـا فـى أيامهـا الأخـيرة : شـوميل طبيـب الملـك ولويـس طبيـب المجلـس البلـدى، ومانـك طبيـب سـجن سـالبترير، ودافـين طبيبهـا الخـاص الـذى تـولى علاجهـا بعـد أن طـردت كوريـف لاعتقادهـا أنـه دجـال يسـمم جسـمها بالعقاقـير التـى لا فائـدة منهـا.

وقـد كان أولئـك الأطبـاء يتشـاورون ويتهامسـون بعـد فحصهـا قائلين :

– مسكينة ؟.. لا أمل فى نجاتها.. لكن لنجرب إلى النهاية.

فهل كانت مارى وهى على فراشها تسمع ما يتهامسون به؟ إنها كانت تتناول الأوراق التى يكتبون فيها أسماء الأدوية، والتعليمات التى يجب عليها اتباعها.

« فى المساء، جرعة من لبن اللوز المر واللوز الحلو، مناصفة، وهذا للاستعانة على الأرق، ودواء آخر يمزج بالحساء لمنع العرق فى الليل، والطعام : حساء الأرز، والبيض الطازج، والسمك الخفيف والدجاج، ويجب ألا تغادر المنزل بالليل أو النهار، والإكثار من الكلام مضر كل الضرر بصحتها، فيجب الامتناع عنه بقدر الإمكان، وتجنب الصراخ خاصة.

وكانت المسكينة تقرأ هذه الأوراق كلمة كلمة وهى تمسكها بيدها المرتعشة ثم تلقيها جانبا فى يأس وامتعاض وتعود إلى الاستلقاء فى سريرها محدقة ببصرها إلى سقف الغرفة، شاردة الفكر، مرتعشة خائفة.

ويدخل كاستلان ويسألها عما قال الأطباء، فتجيبه هامسة :

– إنهم يريدون منعى من الكلام.

ثم تطوق عشيقها بذراعيها وتتشبث به صائحة :

– بيير، بيير، أنقذني.. يقولون إنني سأموت قريبا، إنني حقا أوشك أن أموت.

ويأخذها الكونت بين ذراعيه، ويحاول أن يهدىء روعها بالوعود والأماني الكاذبة، بينما دموعها تنهمر على صدره.

لقد قام كاستلان من أجل عشيقته المريضة بتنفيذ كل ما أوصى به الأطباء، ففرش لها غرفة خاصة تقوم فوق حظيرة للبقر، وكانت مارى تشم الروائح من خلال ثغرات مفتوحة في أرض الغرفة، نزولا على رغبة الأطباء الذين يعالجونها، فتذكرها هذه الرائحة بعهد طفولتها في الريف.

وفي تلك الغرفة كان عشيقها الجديد يزورها كل يوم، ويقضي ساعات عديدة إلى جوارها، يشجعها ويلاطفها، ثم ينصرف تاركا على المنضدة نقودا أو أزهارا أو فاكهة.

وقد بكت حينما قيل لها إنها لا بد لها من ترك منزلها الفخم في الشارع الكبير بباريس لتنتقل إلى هذه الغرفة، وقالت وهي تغادر المنزل :

– لن أعود إلى هنا،.. لن أعود إلى هنا.

وكانت الحظيرة التي تقع غرفتها الجديدة فوقها واقعة في إحدى الضواحي، بعد باب فونتينبلو، وسط أرض زراعية واسعة تجعل المنطقة المجاورة لها أشبه بالريف

منهـا بالمـدن، وهنـاك أعـد الكونـت كاسـتلان عشـا حريريـا زاهيـا، كان الباقـون مـن أصدقائهـا يزورونهـا فيـه، وعندمـا تأتـى إليهـا فتـاة مـن عامـلات المخـازن، كانـت تداعـب العاملـة وتضـع صورتهـا أمـام ناظريهـا وتقـول لهـا:

– انظرى، هكذا كنت بالأمس؟ أما كنت جميلة؟

★★★

وعـاد الكونـت كاسـتلان إلى الخدمـة فـى الجيـش وسـافر إلى إفريقيـا حيـث كانـت حـرب الجزائـر علـى أشـدها، وصـار يكتـب إليهـا مـن وقـت لآخـر يصـف البـلاد التـى يعيـش فيهـا، ويحيـى فـى صدرهـا الرغبـة فـى الرحيـل عـن جـو باريـس، إلى تركيـا أو الجزائـر.

وهـى تعتقـد أن الجـو الدافـىء خـير دواء لعلتهـا، وبـألا شـفاء لهـا فـى فرنسـا، فلابـد لهـا مـن الرحيـل إلى أى بلـد دافـىء فيـه شمـس وصحـراء ورمـال، ولكـن الكونـت كاسـتلان لم يعـد بعـد سـفره، ذلـك العاشـق الوفـى الـودود الـذى عرفتـه فـى باريـس، فهـل نسـيها أو حـاول أن ينسـاها؟ إنـه يرسـل إليهـا هدايـا لا قيمـة لهـا، ولكنـه لا يرسـل نقـودا فـى حـين أنهـا فـى أشـد الحاجـة إلى نقـود.

إن الدائنين، الذين كان الكونت يرضيهم بتسديد بعض الديون من حين لآخر، قد عادوا إلى الإلحاح فى المطالبة والتهديد والوعيد، وماذا تملك هى إزاء ذلك؟.. لا شىء غير الوعود والعبارات المعسولة.

وكان بعض هؤلاء الدائنين يرضون بصك جديد، ولكن أكثرهم كانوا لا يعرفون شفقة ولا رحمة، ولا يريدون الانتظار فيبعثون إليها بالمحضرين للحجز على أثاث منزلها، أو يبعثون بالمحامين لإنذارها بذلك وإقناعها بوجوب الدفع.

وبين أولئك المحامين الذين كانوا يترددون عليها للمطالبة بالديون، محام شاب لمع اسمه فى سماء الشهرة فيما بعد، وذلك هو «هنرى لوميير» وقد بقى هذا المحامى الكبير بعد مرور خمسين سنة على زيارته مارى دوبليسى فى حظيرة البقر، يذكر فى تأثر شديد « ذلك الوجه الملائكى وتلك الأنامل الرقيقة الناعمة التى كان يطبع عليها قبلة قبل الانصراف».

فى النزع الأخير

نهضت مارى من نومها ذات يوم، وأخذت تصرخ فى فزع قائلة :

– إلى البيت،.. إلى البيت. أريد أن أعود إلى البيت.. هناك أريد أن أموت، لا هنا.

وحملها إتيان بين ذراعيه، ونقلها فى العربة إلى باريس حيث استقرت من جديد فى غرفتها، وفى الجو الذى ألفته وعاشت فيه.

ودعى الدكتور دافين لفحصها، ووصف لها أدوية جديدة، وكان سعالها لا ينقطع، والدم يتدفق باستمرار من فمها.

وقد عاد باريجو إلى زيارتها، ولكنها بقيت راغبة عن رؤيته، وزارها الكونت ستاكلبرج، وسمحت له بأن يتردد عليها، ويترك كيسا من النقود على المنضدة قبل الانصراف.

ثلاثة أشخاص ظلوا يهتمون بأمرها ويفكرون فيها: الطبيب دافين، والزوج باريجو، والعشيق السابق ستاكلبرج.

وما عدا هؤلاء فلا أحد يطرق الباب.

وصارت مارى تقضى أيامها ولياليها، وليس معها فى المنزل إلا خادمها إتيان ووصيفتها كلوتيلد، ولم يكن المال الذى يتركه لها ستاكلبرج من وقت لآخر يكفى النفقات وتسديد الديون، وهى لا تجرؤ على طلب مساعدة مالية كبيرة من هذا الرجل الذى أساءت إليه.

إذن لم يبق أمامها لتخفيف هذه الأزمة الخانقة إلا أن تبيع أو ترهن ما تملكه من حلى وتحف وثياب وغيرها.

وهكذا أخذت وصيفتها تذهب كل يوم إلى مكتب الرهون حاملة معها ثوبا أو معطفا أو قطعة فنية من محتويات المنزل.

وكانت مارى تضع على سريرها الأشياء التى قررت الاستغناء عنها، وتنظر إليها طويلا، وتقلبها بين يديها، ثم تعود بذاكرتها إلى الأيام الماضية البهية، وتذرف الدموع حسرة وحزنا على نفسها، ثم تقول لوصيفتها:

– خذيها.. أعطيهم ما يريدون، ولا تعودى بغير نقود.

وقد باعت كل ما يمكن بيعه، ولم تحتفظ إلا بعقد من اللآلىء كان اسكندر دوماس الابن قد أهداه إليها، وخاتما من الزمرد كانت تتفاءل به.

★★★

وأصبحت لا تطيق ضوء النهار، فكانت تأمر بإغلاق النوافذ وتعيش فى ظلام، ولكن رغبتها فى المطالعة كانت شديدة فى تلك الأيام، فكانت تكدس الكتب على سريرها ثم تطالعها على ضوء الشموع، وتلطخ صفحاتها بالدموع أو بالدم.

إنها كتب غرام وهيام، تنتقل بها إلى عهود خالية، يرتع فيها العشاق ويمجد فيها الحب فى أروع مظاهره، وبين تلك الكتب قصة «مانون ليسكو» التى تشبه قصتها من بعض الوجوه، وكانت مارى تظن أن روح تلك العاشقة المنكوبة تقمصت جسدها.

وكثيرا ما كان جرس الباب يدق فى تلك الساعات، فتنتفض مارى وتسأل: «من القادم يا ترى؟ لعلها الجارة الثرثارة كليمانس برات حاملة خبرا جديدا أو عاشقا جديدا؟ أو لعله صديق جاء يعرض مساعدة نحن فى أشد الحاجة إليها؟».

ثم تتنهد وتردف قائلة : « من يدرى؟.. لعله اسكندر دوماس أو فرانز ليست».

ولكن الوصيفة لا تلبث أن تعود إليها قائلة:

– إنه السروجى جاء يطالب بدينه، لكى يهتم بإعداد ما يلزم للعربة والحصان.

وترد مارى بلهجة ملؤها اليأس: « وماذا تريدين أن أصنع؟ قولى له إننى سأدفع له جانبا من دينه.. غدا».

ونهضت مارى من سريرها للمرة الأخيرة فى شهر ديسمبر، وخرجت فى عربتها للنزهة فى الأماكن التى شهدت مجدها من قبل.

وذهبت فى المساء إلى المسرح، وجلست فى مقصورتها، ولفتت إليها الأنظار من جديد.

ولكن السعال يمزق صدرها، أنها الآن غيرها بالأمس، والذين عرفوها يدركون ذلك، وعندما انتهى التمثيل وخرجت غادة الكاميليا من المسرح، لم تجد أحدا فى انتظارها على الباب ليقدم لها ذراعه، ولكن رجلا واحدا سارع إليها برغم الأمر الذى أصدرته إليه بألا يقترب منها. ذلك هو الكونت ستاكلبرج، وقد صحبها فى تلك الليلة حتى باب منزلها، حيث لزمت فراشها على أثر عودتها، ولم تغادره بعد ذاك.

★★★

إن الموت يقترب منها مسرعا، وقد انقطعت عن الكلام، وصارت تقضى أيامها فى السرير ملتحفة بالأغطية الصوفية ولا يزورها فى حجرتها غير الدكتور دافين، الذى ظل يعالجها ويدفع ثمن الدواء، ووصيفتها الوفية تسهر عليها كما تسهر

الأم علـى طفلهـا، وباريجـو زوجهـا، والكونـت سـتاكلبرج.

ولكـن مـارى لم تعـد تعرفهـم، إن غشـاوة تغطـى الآن عينيهـا، والمـوت يـدب فـى عروقها.

وفـى ذات يـوم، وقـف إلى جانبـى سـريرها: الكونـت سـتاكلبرج عشـيقها، والكونـت باريجـو زوجهـا، وقـدم كل منهمـا نفسـه للآخـر وتبـادلا تحيـة صامتـة.

وفـى اليـوم ذاتـه، ذهـب إدوار دى باريجـو إلى أحـد الدجالين ومعـه قميـص مـارى، وطلـب منـه أن يقـرأ لـه مـا يخبئـه الغيـب لزوجتـه الحسـناء، فأخـذ الرجـل القميـص بـين يديـه، وأطـرق مفكـرا، ثـم قـال :

– عد إليها، فإنها تموت.

وفـى اليـوم التـالى، وجدهـا باريجـو تسـلم الـروح، ولكنهـا عرفتـه فقالـت لـه بصـوت ضعيـف.

– آه... جئت لزيارتى؟ أشكرك... إننى أموت.

وجعلت تصيح طالبة النجدة:

– الهواء، الهواء، إننى أختنق.

وتشبثت بوصيفتها، وراحت تهتف بها :

– أنقذينـى.. أنقذينـى.. لا أريـد أن أمـوت الآن.. إننـى مـا

زلت فى سن الشباب

ثم تزفر زفرة متحسرة وتقول:

– حرام أن أموت هكذا

وهدأت قليلا وابتسمت حين قالت لها الوصيفة:

سوف تعيشين يا سيدتى، لا يزال لك فى باريس عشاق ومحبون، لقد تلقيت الآن خطابا من المسيو دوماس، وفتحته بالنيابة عنك وقرأته... إنه يطلب منك العفو والغفران، وهو عائد إليك، إنه فى الطريق، وجاءتنى أيضا رسالة من فرانز ليست، وهو يذكر فيها أن شهر فبراير على الأبواب، وإنه قادم أيضا للسفر معك إلى الشرق.

واستوت مارى جالسة فى سريرها، وانطلقت من بين شفتيها ثلاث صيحات، ثم سقطت جثة هامدة.

وكان ستاكلبرج ينتظر فى قاعة الاستقبال، وبجانبه الكلب الأمين وعوى الكلب فى هذه اللحظة كأنما فهم أن سيدته فارقت الحياة، ودخل ستاكلبرج حجرة مارى، ثم جاء بعده باريجو، وانصرف الكونت الروسى تاركا «الزوج» وحده أمام جثة زوجته، وبقى باريجو للإشراف على إعداد مراسم الدفن، فهو الذى وضع مارى دوبليسى فى نعشها، وهو الذى ملأ النعش بأزهار الكاميليا البيضاء.

نهاية أليمة

ودفنت مارى فى ثوب الرقص، ونقل النعش وعليه أكليل واحد، من الكونت ستاكلبرج، وقد مشى خلف النعش بجانب زوجها باريجو، وكان الناس يقفون على جانبى الطريق ويرفعون قبعاتهم متسائلين:

«من هذا الميت الذى لا يسير فى جنازته أحد؟». والتقى بالموكب الضئيل بعض عشاق غادة الكاميليا السابقين، فى عرباتهم الجميلة، فأمروا سائقى عرباتهم بحث الخيول ليسبقوا النعش الذى يسير فى بطء ويسد أمامهم الطريق.

ودفنت مارى دوبليسى فى مدافن مونمارتر، ثم جاء زوجها بعد ثمانية أيام لنقل الجثة إلى ضريح أعده خصيصا لها، ففتح النعش، ثم سارع إلى إغلاقه، إذ كانت جثة الحسناء قد تطرق إليها البلى، وألقى عليها باقة من أزهار الكاميليا، وانصرف.

ونشرت الصحف خبر وفاة مارى دوبليسى، الحسناء التى سحرت باريس وأحبت أزهار الكاميليا، وجاءت أختها من الأقاليم مع زوجها القروى لأخذ ما يمكن أخذه من بيت الميتة، حيث جعلت تتشاجر مع كلوتيلد وإتيان،

ولكن السلطات المختصة وضعت حدا للشجار : فقد بيعت محتويات البيت بالمزاد العلنى، وحضر البيع جمهور لا يحصى من نساء باريس ورجالها وبينهم الكتاب والفنانون والمحامون والأثرياء وأولئك « الداندى» الذين حرقوا البخور على مذبح ربة الحب الراحلة..

وكان هناك الكاتب الانجليزى تشارلس ديكنز، فجعل ينظر مندهشا إلى هذه النهاية الأليمة، وكان هناك الكاتب الانجليزى تشارلس جوتيه، يبديان اشمئزازهما من مسلك النساء اللواتى كن يقلبن ثياب الحسناء وينتقدنها.

وكان بين الحاضرين شاب شاحب اللون، يلزم الصمت وينظر جامدا إلى ما يحدث ويغمض عينيه أحيانا كيلا يرى، ذلك الشاب هو اسكندر دوماس الابن، الذى جاء مسرعا من إفريقيا، ولكنه وصل بعد فوات الأوان.

واشترى العاشق التائب عقدا من اللؤلؤ، هو العقد الذى احتفظت به مارى دوبليسى لأنه هديه منه، وهكذا عادت الهدية إلى صاحبها الذى أرسلها.

وفى طريق عودته إلى بيته، نظم قصيدة فى ذلك الحدث المثير:

«لقد وجدت حجرتك المظلمة الهادئة

وكانت الذكريات حية ساهرة..

وكان شعاع من الشمس يضىء السرير فى الظلام

ولكنك غير نائمة فى السرير المضاء».

ولما وصل اسكندر دوماس إلى بيته، ودخل حجرة مكتبه، تناول ورقة بيضاء وكتب كلمتين : « غادة الكاميليا....» وأصبحت الكلمتان عنوانا لقصة من أروع أقاصيص الأدب الفرنسى.

★★★

تركت مارى دوبليسى ديونا بنحو عشرين ألف فرنك، وعادت أختها إلى قريتها حاملة معها ما تيسر لها حمله من ثياب لم تجد من يشتريها، وتاجا مرصعا أخذته خلسة، وهو تاج الكونتس مارى دى باريجو.

وانتهت أنشودة مارى دوبليسى عند قبر من المرمر، لا يزال العشاق إلى الآن يحجون إليه ويسبحون فى عالم من أحلام الغرام.

إلى عالم الخلود

كانت حياة مارى دوبليسى قصيرة الأمد كحياة الزهور، فقد ماتت فى الربيع الثالث والعشرين من عمرها، ولم يزد عدد السنوات التى عاشتها مستريحة سعيده على عدد أصابع اليد الواحدة، أما بقية سنى حياها، قبل ذلك وبعده، فكانت المسكينة خلالها نهبا مقسما بين الكفاح المرير فى سبيل القوت، ومغالبة مرضها الفتاك.

وقد ماتت الغانية الشابة الحسناء فى المنزل الذى شهد أوج سعادتها وشقائها على السواء، ولم يكن معها ساعتئذ غير خادمتها أو وصيفتها التى أخلصت لها حتى النهاية، أما عشاقها الكثيرون فاختفوا من حياتها قبل ذلك واحدا بعد واحد ، ولم يكن فى منزلها منهم يوم وفاتها غير اثنين، ظلا واقفين بالباب: الزوج الذى طردته، والعاشق الشيخ الذى لم تحبه، فنهايتها اذن كانت نهاية امرأة تعسة عرفت الحب ولكنها ماتت يائسة منه.. ولم تلفظ أنفاسها الأخيرة على كتف الحبيب أو بين ذراعيه.

وهذه الحياة شبيهة بحياة كثير من الغانيات أو الممثلات العاشقات فى كل عصر وكل بلد، ولو لم يكن من حسن حظ

مارى دوبليسى أن أحبها كاتب عبقرى هو اسكندر دوماس الابن، لما بقى لها ذكر فى التاريخ.

فهذا العاشق الأديب الشاب أبى إلا أن يعيدها إلى الحياة بعد موتها، فبعثها من عالم النسيان إلى عالم الخلود، بقصة « غادة الكاميليا» التى استوحاها من حياة مارى دوبليسى التى أحبها وكان أحد رجلين علق بهما قلبها بإخلاص وأمانة ووفاء.. وكان الآخر فرانز ليست الموسيقى العبقرى الشهير.

وقد هجرها دوماس كما هجرها ليست، برغم انهما وحدهما اللذان أحبتهما ولم تطردهما من بين جميع عشاقها الكثيرين.

على أن دوماس تصرف فى كتابة حياة مارى دوبليسى تصرفا كبيرا، وقد أشار هو نفسه إلى ذلك فى المقدمه التى كتبها لقصته « غادة الكاميليا» فقال:

– إن المرأة التى اتخذتها نموذجا لبطلة روايتى هذه «غادة الكاميليا» كانت تحمل اسما غير اسم «مرجريت جوتيه» الذى أطلقته عليها، فقد كان اسمها الحقيقى «الفونسين دوبليسى».

« وكانت الفونسين هذه طويلة القامة، ممشوقة القوام، نحيلة الجسم سوداء الشعر، جمع وجهها بين بياض الورد وحمرته، وكان رأسها صغيرا وعيناها أشبه بعينى المرأة اليابانية ولكن نظراتها حادة ساحرة، وشفتاها كانتا

أشبه بثمرة حمراء، وأسنانها أبدع أسنان فى الوجود.

وصفوة القول، كانت مارى دوبليسى كتلك التحف المعروفة «بالساكس» يخشى عليها المرء أن تتحطم بين يديه.

«رأيتها للمرة الأولى فى سنة ١٨٤٤، وكانت فى ذلك الوقت بهية الطلعة فى أوج مجدها وعزها وجمالها وشهرتها، وقد ماتت سنة ١٨٤٧ فى الثالثة والعشرين من عمرها متأثرة بمرض صدرى عضال.

وقد اختارت الفونسين لنفسها اسم مارى منذ استقر المقام بها فى باريس وصارت من غانياتها المشهورات، ولكنها كانت تختلف عن هؤلاء الغانيات فى أنها ذات قلب رقيق يخفق بالحب وأنبل العواطف، وقد يكون هذا من الأسباب التى أدت إلى موتها فى ريعان العمر، كما أنها كانت على جانب غير قليل من الفطنة والذكاء، لا تميل إلى الطمع أو الجشع، ومن هنا ماتت فقيرة بعد أن حجز الدائنون على أثاثها وأمتعتها وجميع ما تملك.

وكانت متأنقة فى ملبسها، وهذا طبيعى فيها لا مكتسب، حسنة الاختيار، سليمة الذوق تمشى مشية فيها كثير من النبل والدلال معا، وكثيرا ما كان الناس يظنونها من نساء الطبقة الراقية».

ولما ماتت، كتب عنها الشاعر تيوفيل جوتيه أبياتا مؤثرة رائعة وصف فيها تلك الفتاة الصغيرة التى استسلمت للحب استسلاما أفقدها الحياة.

« إذن.. لم تحدث لمارى دوبليسى جميع هذه الحوادث التى تضمنتها قصتى على أن هذه الحوادث لو وقعت لمارى دوبليسى فى حياتها لكانت أشبه بها، وليس فيها ما هو مستبعد عليها أوغريب.

واذا كانت مرجريت جوتيه لم تقدم على أية تضحية لعشيقها أرمان دوفال، لأن ارمان

نفسه رفض أن تقدم على أية تضحية من أجله، فليس هذا إلا وليد الخيال لا وليد الحقيقة والواقع، ولم تقم مارى دوبليسى فى حياتها التى استوحيتها قصتى ومسرحيتى بغير حوادث الفصلين الأول والأخير، أما حوادث بقية الفصول فكلها من نسج الخيال.

نعم كانت حياة مارى دوبليسى شبيهة بحياة مرجريت جوتيه، كما سجلتها فى الفصلين المذكورين، كان كالمرأة التى تنسج فى الليل نسيجا، ثم تحل خيوطه من جديد فى النهار، فحياتها كلها كانت محصورة فى الوقائع التى تضمنها الفصل الأول والخامس من مسرحية «غادة الكاميليا»،

ولم يكن فى تلك الحياة، كما تتابعت فصولها ما يكفى من وقائع لوضع بقية فصول المسرحية».

★★★

ذلك ما ذكره اسكندر دوماس الابن نفسه عن بطلته التى خلدها فى روايته، اما لقب «غادة الكاميليا» أو « المرأة ذات الكاميليا» فقد ذكر دوماس أن مارى دوبليسى لم تحمله فى حياتها، وأن الناس لم يلقبوها به على الإطلاق، بل هو الذى ابتكره حين أخرج قصتها بعد موتها بسنة، فعرفها به الناس منذ ذلك الحين.

على أن بعض النقاد المعاصرين يؤكدون أن مارى دوبليسى عرفت فى حياتها بلقب «غادة الكاميليا « وذلك لكثرة ظهورها فى منزلها وخارجه واضعة هذه الزهرة فى صدرها أو على عربتها، وسواء أكان ذلك اللقب قد أطلق عليها فى حياتها أم بعد أن أصبحت جثة هامدة يحويها القبر. فقد صار اسم زهرة الكاميليا لا يذكر حتى تقترن به صورة تلك الغانية المسكينة التى ذهبت ضحية حبها وماتت فى السن التى تحلم فيها المرأة عادة بأمتع أحلام الحياة.

وإذا ذهبت اليوم إلى مدافن مونمارتر بباريس، وطلبت إلى حارس هذه المدافن أن يذهب بك إلى قبر « غادة الكاميليا»

فإنه يقودك إلى قبر مربع الشكل من المرمر حفر عليه هذا الاسم : الفونسين دوبليسى، ووضع بجانب الاسم إكليل من زهرة الكاميليا الأبيض مصنوع من المعدن ومثبت إلى الحجر داخل اناء من الزجاج, وقد أصبح هذا القبر صفحة من التاريخ لأن الفن يبعث الميت من لحده وينشىء له هالة من الشهرة تبقى على مر الأجيال.

★★★

وقد ظهرت قصة « غادة الكاميليا» سنة ١٨٤٨ وكتب مقدمتها الفنان «جول جانان» صديق مارى دوبليسى وعاشقيها: دوماس وليست.مشيرا إلى حياتها، ولقيت القصة رواجا كبيرا حدا باسكندر دوماس الابن إلى إخراجها للمسرح فى السنه التالية، أى بعد وفاة مارى بسنتين، ولكن الرقابة حالت دون تمثيل الرواية على مسرح الفودفيل بباريس محتجة بأن فيها تمجيدا للفسق والفجور، وبأن تمثيلها خطر على الآداب العامة.

وقلق الأدباء والمؤلفون والفنانون من إصرار الرقابة على منع تمثيل المسرحية الجديدة، وتشاوروا فيما بينهم، ثم قرروا أن يقدم ثلاثة منهم طلبا رسميا إلى السلطات المختصة لترفع الحظر عن مسرحية دوماس، ووقع على هذا الطلب جول جانان عن النقاد الفنيين، وليون جوزلان، واميل اوجيه

عن المؤلفين، وأرسل هذا الطلب إلى دوق دى مورنى المستشار الخاص للأمير لويس بونابرت، رئيس الجمهورية الفرنسية فى ذلك الحين، فعرضه عليه موصيا بإجابته، وأرسله رئيس الجمهورية إلى ليون فوشيه وزير الداخلية، الذى أصدر قرار حظر تمثيل المسرحية لإعادة النظر فى ذلك القرار.

ولكن فوشيه أصر على استمرار الحظر.

والأمير لويس بونابرت هذا هو الذى صار فيما بعد إمبراطورا لفرنسا باسم نابليون الثالث، وقد أنجبته أمه الملكة أورتانس من الأمير لويس شقيق الإمبراطور نابليون الأول، والذى نصب فى عهده ملكا على هولندا.

أما الدوق دى مورنى، فهو ابن الملكة أورثانس ايا، ولكن من عشيقها لا زوجها.

وكان الناس يعرفون هذا، بل أن نابليون الثالث نفسه كان هو أيضا يعرف أن الدوق أخوه من أمه، ولهذا قربه منه وجعله مستشاره الخاص، ولم يكن يخيب له أى رجاء، وكانا متشابهين فى الهيئة إلى حد أن كثيرين لم يكونوا يستطيعون أن يميزوا أحدهما من الآخر.

وأما ليون فوشيه، وزير الداخلية فى حكومة الجمهورية الفرنسية سنة ١٨٤٩ فكان عنيدا إلى أقصى حد، وكان

اسكندر دوماس الابن حينذاك فى الخامسة والعشرين من عمره مبتدئا فى شق طريقه فى ميدان الأدب والتأليف، سالكا سبيل اسكندر دوماس الكبير أبيه، الذى كان قد أحرز شهرة لم تتح من قبله لأديب.

وقد ذهب دوماس الأب مع ابنه إلى الوزير فوشيه لإقناعه بالإفراج عن المسرحية بعد أن وافق على ذلك الدوق دى مورنى، وبعد أن أحال رئيس الجمهورية إلى الوزير الطلب الخاص بذلك، ولكن فوشيه العنيد رفض الإصغاء إلى رجاء الأب والابن معا، ولم يفرج عن الرواية.

وقال المؤلف الشاب: « لا بأس.. سأنتظر».

ولم يطل انتظاره فقد حدث تغيير وزارى على أثر ذلك، وحل الدوق دى مورنى نفسه محل ليون فوشيه فى وزارة الداخلية، فلم يمض على ذلك أكثر من يومين حتى ألغى الوزير الجديد قرار الحظر الخاص بتمثيل « غادة الكاميليا» على مسرح الفودفيل، ونجح تمثيلها نجاحا عظيما قفز بمؤلفها الشاب إلى قمة الشهرة مرة واحدة، وبقى يعد هذا النجاح الأول الذى أحرزه أعظم نجاح عرفه فى حياته. وكان هذا النجاح فى الوقت نفسه تخليدا لذكرى مارى دوبليسى عشيقة المؤلف الشاب، تلك الغانية الشابة التى أثار جمالها إعجاب النبلاء والأثرياء فى باريس، وكانوا

يتنافسون فى التودد إليها والسير فى ركابها وتلبية رغباتها والتى كان الباريسيون جميعا فى وقت من الأوقات يذكرونها قائلين: » ملكتنا المتوجة بالأزهار».

وهكذا بعثت مارى دوبليسى إلى الحياة على يد أحد عشاقها، ولكن بعثها هذا كان مصحوبا بالضجيج والاحتجاج، فقد انقسم الناس إلى فريقين، فريق يؤيد المؤلف، وفريق يناهضه ويستنكر الموضوع الذى حاك منه حوادث روايته، ونقل به إلى المسرح طبقة الغانيات المستهترات أو الساقطات، وأحاطها بهالة من التمجيد والتقدير.

وهذه الأسباب ذاتها هى التى حملت وزارة الداخلية الفرنسية على منع تمثيل «غادة الكاميليا» على أن اسكندر دوماس الابن ومن خلفه مؤيدوه من أرباب الأقلام ما لبثوا أن انتهزوا تلك الفرصة لشن حملة شعواء على نظام الرقابة على المؤلفات، وعلى الوباء المتفشى فى المجتمع حيث يقترف الناس الفواحش فى الخفاء ثم يجاهرون بانتقادها.

وفى ذلك يقول اسكندر دوماس الابن: « إن تلك الطبقة من النساء – طبقة الغانيات المستهترات – جديرة بالعناية والاهتمام كغيرها من الطبقات الأخرى، وذلك لأنها ما دامت موجودة فلا سبيل إلى إنكار وجودها، ومن حق الكتاب أن يعالجوا الأمور المتعلقة بها، وأن يعرضوا نماذج

منهـا فـى قصصهـم ومسـرحياتهم، كمـا هـو الشـأن مـع النسـاء الشـريفات أو اللواتـى يدعـين أنهـن شـريفات».

والواقـع ان مـارى دوبليسـى بعثـت إلى الحيـاة، منـذ أخـرج دومـاس الابـن قصـة حياتهـا فـى روايتـه القصصيـة الأولى، وكان بعثهـا هـذا سـببا لإثـارة جـدل طويـل بـين قـادة الفكـر حـول موضـوع طالمـا شـغل بـال الكتـاب والمصلحـين، ولكنهـم كانـوا يحجمـون عـن الخـوض فيـه جهـارا، ويكتفـون بمناقشـته فيمـا بينهـم، أمـا بعـد أن ظهـرت « غـادة الكاميليـا « علـى المسـرح فقـد نقـل هـذا النقـاش مـن بـين جـدران المكاتـب والقاعـات الضيقـة، إلى خشـبة المسـرح، ثـم إلى صفحـات الجرائـد.

وهكـذا عـادت مـارى دوبليسـى، أو مرجريـت جوتيـه، تشـغل الأذهـان بعـد موتهـا، كمـا كانـت تشـغلها فـى حياتهـا.

فى مسرحية دوماس

ليس هناك ما يثبت أن مارى دوبليسى أقدمت فى حياتها على أية تضحية فى سبيل واحد من عشاقها الكثيرين، ولكن دوماس الابن جعلها فى مسرحيته تضحى من أجل «أرمان دونال» الذى رمز به لعلاقته بها فى قصة «غادة الكاميليا»، كما رمز بشخصية الكونت دى فرفيل عشيق «مرجرجيت جوتيه» أى «مارى دوبليسى» إلى الكونت ستاكلبرج، أو غيره من أولئك العشاق الذين ظهروا فى حياة الحسناء.

إن أرمان دوفال يتهم مرجرجيت بأنها تخلت عنه فيقول:

«إنها تخوننى وكنت أعبدها، ليس لأولئك الغانيات نفوس ولا قلوب.. كنت فى حاجة إلى حنو حقيقى أستمد منه القوة لتحمل مصاعب الحياة. اذ كانت مقاليد أمورى بيد أبى، وكنت أعمل كآلة صماء لا حياة فيها، فهربت من باريس، ووصلت إلى مدينة تور وظننت أننى أستطيع الإقامة بها، ولكن هذا لم يكن فى المستطاع؛ فقد جفانى النوم وكدت أختنق.إن حبى لتلك المرأة كان شديدا أكثر مما يجب.. كنت أحبها.. ولم يكن فى وسعى البقاء بعيدا عنها..وخيل إلى أننى سأموت إذا لم أعد إليها، وإذا لم

أسمعها تردد بلسانها على مسامعى ما كانت قد كتبت به إلى من قبل قائلة « اذهب أنت حر.. لا أريد أن أراك، نعم لم يكن لى بد من أن أراها وأحدثها وأتثبت مما تريد».

ورآها أرمان، ودار بين الاثنين حديث ختم بفاجعة، وفى ذلك الحديث الذى ابتكره اسكندر دوماس، أقدمت مرجريت – أو مارى بعبارة أخرى – على تلك التضحية المسرحية التى لم يكن لها فى الحياة الواقعية أثر.. لقد بدأ الحديث بين الغانية وعشيقها الذى تخلت عنه، بالعتاب والتأنيب :

– أريد أن أكلمك يا أرمان:

– تكلمى... إننى أصغى إليك... وستحاولين أن تبرئى نفسك..

– لا يا أرمان، لن أتحدث عن هذا، بل أتوسل إليك راجية ألا تعود إلى ذكر الماضى.

– الحق معك، فإن فى الماضى عارا عظيما عليك.

– لا تنكل بى يا أرمان، بل أرجو أن تصغى إلى دون حقد ولا غضب ولا احتقار... أعطنى يدك يا أرمان.

ويرفض أرمان أن يعطيها يده، ويهم بمغادرة حجرتها، ولكنها تستبقيه قائلة:

– من كان يظن أنك سترفض يوما ما مصافحة اليد التى أمدها إليك؟ ولكن هذا لا يهم، اسمع يا أرمان: يجب أن تسافر وتبتعد.. يجب أن تعود إلى أبيك. أن تعود إليه الآن، إن الكونت فرفيل سيدعوك إلى المبارزة وأنا لا أريد أن تقع مصيبة بسببى... أريد أن احتكر الألم لنفسى وأبعده عمن أحب.

★★★

وهكذا تبدو الغانية، كما صورها دوماس فى مسرحيته، عاشقة مخلصة للشاب الذى تحبه، وتحاول أنقاذه من فتك الرجل الذى ينفق عليها، فتنصح له بالابتعاد والسفر.

ولكن الشاب يثور؛ إذ يظن إنها لم ترغب فى إبعاده إلا لأنها آثرت عليه ذلك العاشق العجوز صاحب المال الوفير.

ولا يصدقها الشاب فيما تذكر له من أنها تحبه وتقدم على حرمان نفسها من حبه خوفا على حياته، ويعتقد أنها تمثل فصلا من الخداع والرياء فيقول لها:

– إذن، أنت تنصحين لى بأن أفر أمام الرجل الذى يتحدانى؟.. تنصحين لى بأن أكون جبانا؟، حقا، أية نصيحة غير هذه فى وسع امرأة مثلك أن تقدمها لشاب مثلى.

ولكن هذه السخرية لا تمنع الغانية من مواصلة نصحها لعشيقها الشاب.. إنها تعرف أن أباه وأمه وأخته وأهله جميعا يريدون أن ينقذوه من حبها، وهى تحبه إلى حد أنها تقبل التضحية بهذا الحب، وتقدم على تمزيق قلبها بيدها لكى تضمن لحبيبها حياة سعيدة هادئة بين أسرته؛ فهى تعلم ان حياته معها لن تسفر إلا عن مأساة لا مفر منها، ولهذا ترد عليه قائلة:

– أرمان، أقسم لك أننى منذ شهر، أى منذ اليوم الذى افترقنا فيه، وأنا أتألم إلى حد لا أستطيع معه التحدث عن هذا الألم، إننى مريضة وأشعر بالداء يتفاقم ويحرق صدرى، فباسم حبنا.. باسم حبنا الماضى، وباسم آلامى المقبلة، وباسم والدتك وأختك وأبيك.. اهرب منى، ابتعد عنى، عد إلى أبيك يجب أن تنسانى.. يجب أن تنسى حتى الاسم الذى أحمله.

ولكن العاشق الغيور، الذى أفقدته الغيرة كل تقدير وكل تفكير سليم يعتقد أنها تخاف على غريمه لا عليه، وأنها تخشى أن تفقد مال ذلك الغريم فهى إذن تؤثر مصلحتها المادية على عاطفة الحب والوفاء لها، فيصيح بها قائلا:

– فهمت الان يا سيدتى أنك ترتعدين خوفا على عشيقك الذى تنحصر فيه ثروتك، وفى وسعى، إذا

تبارزت معه، أن أسبب خرابك وإفلاسك بضربة سيف أو بطلقة رصاص.. وسيكون هذا مصابا فادحا بلا شك.

– ربما قتلت انت يا أرمان، وهذا هو المصاب الفادح الحقيقى.

– وماذا يهمك أن أحيا أو أن أموت، لقد كتبت إلى تقولين: (أرمان يجب أن تنسانى لأننى خليلة رجل آخر».. فهل كنت تكترثين لحياتى عندما كتبت إلى هذا؟ وأذا كنت لم أمت بعد أن تلقيت منك تلك الرسالة القاسية فما ذلك إلا لأننى كنت أريد أن انتقم وما جئت الآن إلى هنا إلا لكى أنتقم.. آه.. لقد ظننت أن الأمور ستسير على المنوال الذى تريدين وأنك ستحطمين قلبى، وإننى لن أمد يدى بسوء إليك أو إلى شريكك.. كلا يا سيدتى.. لقد عدت إلى باريس، وبينى وبين عشيقك مسيو دى فوفيل مسألة دم، وسأقتله، حتى لو كان ذلك سيؤدى بحياتك أنت.

وأرادت مرجريت جوتيه – أو مارى دوبليسى – أن تدفع هذه التهمة عن فرفيل – أو ستاكلبرج – فراحت تؤكد براءته لأرمان، ولكن هذا لم يصدقها، وأصر على أنها تحب ذلك النبيل الثرى العجوز وتريد إبعاده هو من أجل ذلك الحب.

ومضت هى فى محاولتها إقناعه بالحقيقة المخالفة لذلك الظن، وقالت له مؤكدة:

– لا، لا، لا أحبه، لا أستطيع أن أحب مثله.

ولكن أرمان لم يقتنع، لأنه لم يفهم كيف تستطيع أن تعيش مختارة مع رجل لا تحبه، وكيف تسلم نفسها لذلك الرجل.. ولهذا صاح أرمان فى وجه مرجريت قائلا:

– لقد سلمت نفسك لهذا الرجل لأنك امرأة بلا قلب، ولأنك لا تعرفين للشرف معنى، ولأن حبك ملك لمن يدفع ثمنه، ولأنك جعلت قلبك سلعة تشترى وتباع، ولأنك عندما وجدت نفسك امام تضحية كان يجب عليك الاقدام عليها من أجلى خانتك الشجاعة وتغلبت فيك الغريزة الدنيئة، وأخيرا لأن الشاب الذى وقف حياته على حبك ووضع بين يديك شرفه لا يساوى فى نظرك أكثر من جياد عربتك ولا أكثر من الحلى التى تحلين بها عنقك.

وتتألم المرأة، لهذا السيل من التهم القاسية، ولكنها برغم ذلك تمضى فى محاولة إنقاذ حبيبها الثائر، فتقول له:

– نعم، لقد فعلت كل هذا، نعم، أنا مخلوقة دنيئة شقية.. لم أكن أحبك، لقد خدعتك.. ولكن، بقدر ما أنا سافلة يجب عليك أنت أن تتذكر الماضى وألا تعرض حياتك للخطر فى المستقبل.. أرجو منك يا أرمان أن ترحل وأن تعود إلى أبيك.. ولا تلتفت بعد الآن إلى الوراء.

★★★

وهنا أراد الشاب أن يلقى بسهمة الاخير، فذكر لها أنه مستعد للرحيل ولكن على شرط ان تسافر هى معه.

وترفض مرجريت هذا، لأنها تعلم أن فى بقائها مع الشاب شقاء له، وعندئذ يثور الشاب من جديد، ويسترسل فى الوعيد:

– اسمعى يا مرجريت، إننى مجنون محموم.. إن دمى يغلى فى عروقى ورأسى يحترق.. إننى أجد نفسى فى درجة هياج يقدم عندها الإنسان على كل شىء، حتى على الجريمة، لقد ظننت فى ساعة من الساعات أن الحقد هو الذى دفعنى إليك، ولكننى أدرك الآن أنه الحب.. نعم، الحب الذى لا يقهر، الحب الذى يضاعفه وخز الضمير والاحتقار والعار.. إذ إننى أحتقر نفسى لشعورى بهذا الحب بعد كل ما حدث.. والآن، قولى لى كلمة واحدة تنم عن الندم وتلقى تبعة خطئك على الأقدار والظروف والمصادفات، وأنا أعدك بأن أغفر لك ضعفك وخطأك وبأن أنسى كل شىء، فماذا يهمنى هذا الرجل، إننى لا أكرهه إلا اإذا كنت تحبينه.

فإذا أنت ذكرت لى الآن أنك ما زلت تحبيننى أنا، وأنك لا تحبينه هو فسأغفر لك كل ما تقدم من ذنبك، سنهرب معا من باريس وننسى الماضى أو نرحل إلى أطراف الأرض إذا اقتضى الأمر ذلك، نرحل إلى حيث لا نرى أحدا

ولا أحد يرانا.. حيث نكون وحدنا فى العالم، مع حبنا.

فسكتت مرجريت لحظة، ثم تنهدت وأجابت:

– إننى أدفع حياتى كلها ثمنا لساعة من السعادة التى تعرضها علىّ، ولكن هذه السعادة مستحيلة، إن هوة سحيقة تفرق بيننا، ولو عشنا معا لكانت حياتنا شقاء وتعاسة، لم يعد فى استطاعتنا أن نسترجع حبنا ونعود إلى ما كنا عليه، اذهب اذهب، يجب أن تذهب وأن تنسانى، لقد أقسمت.

– ولمن أقسمت ؟

– للرجل الذى كان له الحق فى أن يطلب منى هذا القسم.

– المسيو دى فرفيل؟

– نعم.

فبلغت ثورة الشاب ذروتها، وصاح فى وجه المرأة :

– إنك تحبين هذا الرجل.

ولم يكن لمرجريت من مفر لإبعاد العاشق الثائر غير أن تصرح أمامه أنها تحب غريمه، فتمتمت خائرة القوى:

– نعم، أحبه.

وهنا صاح أرمان صيحة ألم ونادى الذين كانوا يلعبون فى القاعة المجاورة لحجرة الغانية، فدخلوا مهرولين مذعورين وسمعوه يقول وقد جحظت عيناه من الغضب :

– أترون هذه المرأة، لقد كانت تحبنى، وباعت كل ما كانت تملك لتعيش معى.. وسلكت أنا سلوك الأشقياء الأوغاد فقبلت تضحيتها ورضيت بما صنعت من أجلى.. ولكن لم يفت الوقت بعد للتكفير عن ذنوبى.. إننى لم أعد مدينا لهذه المرأة بشىء، وها أنذا أدفع لها ثمن غرامها.

ثم ألقى أرمان برزمة من المال على قدمى مرجريت، وانصرف لا يلوى على شىء.

obeikandl.com

بين يدى الحبيب

تلك هى التضحية التى أشار إليها دوماس الابن فى كتابه عن مارى دوبليسي، وجعلها مشهدا من مشاهد مسرحيته «غادة الكاميليا، والواقع أن مارى دوبليسى لم تقدم على شئ من هذا، وليست هى التى هجرت عشيقها دوماس، بل دوماس هو الذى تركها، لأنه

أبى أن يكون «حبيب القلب» بينما غيره «حبيب الجيب» الذى ينفق على الحسناء عشيقته، ولكن اسكندر دوماس، الذى وضع قصته ومسرحيته لتمجيد صديقته السابقه الراحلة، أراد فى الوقت نفسه أن يجردها من جميع العيوب، ويسربلها بجميع الفضائل، فجعلها تقدم على تلك التضحية الرائعة بحبها وقلبها لكى تنقذ حبيبها من الشقاء، وبلغ بها من إنكار الذات حدا جعلها أشبه ببطلات التاريخ؛ إذ جعلها تدعى أنها تحب رجلا آخر لكى تقنع حبيبها الحقيقى بوجوب الابتعاد عنها ونسيانها!

ولم يحدث فى حياة مارى دوبليسى أن تبارز رجلان بسببها، فإن العشاق كانوا يأتون ويذهبون، ويدخلون ويخرجون، ويعيشون معها مدة من الزمن ثم يختفون، دون

أن يكتنف ذلك كله شئ من الخطر، أو دون أن تتحول المهزلة إلى مأساة أو فاجعة.. إنها الحياة تمر كما ارتأتها مارى دوبليسى لنفسها فهى غانية تقامر بجمالها، وتسعى إلى الحب أيضا لإرضاء العاطفة الجياشة فى صدرها، ولكن هذا الحب لا يحول دون مواصلة السعى للبحث عن الرجل الذى ينفق من المال ما يكفل لها الترف والبذخ، وإذا وجد الاثنان معا، واجتمع السببان، فهذا خير وأوفى.

أما إذا وجد الحب وحده ولم يوجد المال معه، فهذا مدعاة للقلق والاضطراب والشقاء، وفى هذه الحالة، فإن مارى دوبليسي، من غير أن تتخلى عن حبيبها، تواصل البحث لاقتناص الرجل الغني، ولا ترى ما يمنع بقاء الاثنين معا فى بيتها.

وهذا مالم يكن العاشق المغرم يرتضيه لنفسه، وهذا ما رفضه اسكندر دوماس، ثم رفضه فرانز ليست، فهجرها كل منهما من تلقاء نفسه، ولم تطردهما من بيتها، ولا حاولت أن تضحى من أجلهما بالناحية المادية من حياتها.

إن الغانية الإباحية لا ترى عيبا فى أى مسلك يضمن لها تحقيق الأمنيتين : أمنية الحب، وأمنية الغنى، ولكن دوماس الابن، برغم أفكاره الحرة واندفاعه فى سبيل الحب، يرى أن كرامته فوق كل

شئ، وأنه لا يليق به أن يعيش على حساب امرأة.

وقد رفض دوماس، فى علاقته مع مارى دوبليسي، أن يكون ذلك الرجل، ولكنه حين صور حياتها فى قصته ومسرحيته، أبى إلا أن يظهر بطلته – وهى المرأة التى أحبها بإخلاص – فى مظهر المرأة النفعية المتاجرة بجمالها دون أى اعتبار آخر، فجعلها تلك البطلة المحببة إلى القلوب، التى تدرك أنها سقطت فى هوة سحيقة، ولا ترضى للرجل الذى أحبته بإخلاص أيضا، أن يسقط معها وبسببها فى تلك الهوة.

فاسكندر دوماس إذن لم يأخذ من أخلاق مارى دوبليسى غير الناحية المحببة، ولم ينقل إلى المسرح جميع العيوب المادية والروحية والأدبية لبطلة روايته، بل نقل إليه ما وجده فيها من فضائل، وأضاف إليها فضائل من عنده، جعلت من «غادة الكاميليا» لا نموذجا للمرأة الساقطة فحسب، بل نموذجا للمرأة النبيلة التى سقطت، أو بعبارة أخرى أراد دوماس أن يقول: «إن أولئك النساء الساقطات أشرف كثيرا، فى بعض الأحيان، من أولئك اللواتى يدعين النبل والفضيلة ادعاء، أو اللواتى يخدع المجتمع بهن ويحترمهن فى حين أنهن غير جديرات بالاحترام».

ولهذا السبب حظرت الرقابة الفرنسية، تمثيل «غادة الكاميليا» على مسرح الفودفيل فى باريس، لأنها اعتبرتها

دعـوة إلى الإباحيـة فـى العلاقـات بـين الرجـل والمـرأة، وتمجيـدا لطبقـة مـن النسـاء لسـن أهـلا لهـذا التمجيـد.

★★★

كان اسكندر دوماس الابن طيفا عابرا مثل غيره فى حياة مارى دوبليسي، ولكن هذا الطيف قد أحبته مارى حبا حقيقيا، وهذا هو الفارق بينه وبينهم، ولو لم يكن اسكندر دوماس كاتبا ومبتكرا وراغبا فى السير على منهاج أبيه والنسج على منواله، لما أخذت علاقته الغرامية بمارى دوبليسى هذا الوجه، ولما ظل ذكرا حيا فى النفوس، ومن حسن حظ تلك الغانية الحسناء أن عشيقها كان من الكتاب والمؤلفين، فخلد ذكرها بينما اضمحل ذكر غيرها من الغانيات الحسان!

وفى حياة مارى دوبليسي، لم يحدث ان هجرها دوماس ثم عاد إليها تائبا وأنها ماتت بين ذراعيه، كما هو الشأن فى المسرحية المشهورة، فإن الكاتب العاشق الشاب بعد أن هجرها عاد إلى أبيه، وأراد هذا أن يوفر له أسباب السلوى، فأخذه معه فى رحلة إلى أسبانيا، فلما رجعا من هذه الرحلة كانت مارى دوبليسى قد ماتت منذ أيام.

وكل ما قام به دوماس الابن عقب ذلك أنه توجه إلى منزلها الذى عاش معها فيه بضعة أشهر، وشهد بيع

محتوياته مع صديقه جول جانان الناقد الفني. كما أنه ابتاع فى ذلك اليوم عقد اللؤلؤ الذى كان هديته الوحيدة إلى الغانية الحسناء فى أيام حبهما السعيد.

وقد تأثر الكاتب الشاب باحتفاظها بذلك العقد، برغم حاجتها الملحة إلى المال، وبرغم اضطرارها إلى بيع كل حليها للإنفاق على نفسها ودفع ثمن الأدوية والعقاقير. ولكنه لم يكتف بذلك القدر حين صور حياتها فى مسرحيته، فجعلها تموت ميتة مسرحية جديرة بالمرأة العاشقة التى تلفظ أنفاسها الاخيرة على صدر الرجل الذى أحبته، والذى عاد إليها فى الساعة الأخيرة، وقبل فوات الوقت.

ولا شك أن هذا التحوير الذى ابتكره خيال الكاتب الشاب قد زاد فى روعة المسرحية، وجعل الفصل الأخير منها آية من آيات التأليف المسرحي، بل إن ختام مسرحية «غادة الكاميليا» لا يزال حتى اليوم من أبدع ما جادت به قرائح المؤلفين، وهو يدل على عبقرية دوماس، الذى لم يكن عمره عندما وضع روايته أكثر من خمس وعشرين سنة، عدا أنها كانت أولى رواياته للمسرح.

عاشت للحب

رأينا كيف ماتت مارى دوبليسى بين يدى وصيفتها، فكيف ماتت مرجريت جوتيه فى رواية «غادة الكاميليا» بين يدى عشيقها أرمان دوفال؟

تبارز أرمان وغريمه فرفيل بعد ذلك اللقاء بين الفتى العاشق وبين مرجريت حيث انصرف غاضبا بعد أن ألقى فى وجهها برزمة المال وشفع ذلك بالإهانات والتهديدات.

وأصيب فرفيل فى المبارزة بجرح كاد يودى بحياته، ثم عاد والد أرمان دوفال بما فعلته مرجريت ، وكيف انها صرحت أمام ابنه بأنها لا تحبه ، بل تحب غريمه الكونت لكى تبعده عنها، فأكبر الوالد هذا التصرف النبيل من الغانية التى طلب فيها أن تتخلى عن ابنه، إنقاذا له من العار، ورأى أن تصرفها هذا أشرف وأجدر بالتقدير من مسلك كثيرات من نساء المجتمع الباريسي، اللواتى يسرقن الرجال من زوجاتهم ولا يقدمن على أية تضحية ولو طفيفة فى سبيل الحب.

وشعر الأب بأن الواجب يقضى عليه بأن يشكر مرجريت على موقفها، فكتب إليها رسالة رقيقة أعرب فيها عن كل

ذلك بعبارات مؤثرة، ختمها راجيا لها الشفاء من مرضها متمنيا لها النسيان والسلوى. ثم أراد الأب بعد ذلك أن يكفر عن ذنوبه تجاه ولده وعشيقته الوفية، فأطلع ابنه على الحقيقة، وأفهمه أن «غادة الكاميليا» كانت ولا تزال تحبه، وأنه هو الذى طلب منها أن تتخلى عنه ففعلت استجابة لرجائه.

وسارع أرمان إلى مرجريت المريضة، ليراها ويستغفر لذنبه، ويحاول أن يعيد إليها الرجاء والأمل، ويمحو من ذهنها الأثر الذى تركته فيه فعلته معها.

إن اسكندر دوماس الابن، لم يصل إلى مارى دوبليسى فى الوقت المناسب، أما بطله أرمان دوفال فقد وصل إلى مرجريت دوتيه قبل فوات الوقت، أى قبل أن تموت.

دخل الشاب العاشق على المسكينة، وقد أنهك المرض قواها وهد كيانها، وكانت أمارات التوبة والندم بادية عليه، فقال بصوت خافت:

ـ لقد جئت إليك يا مرجريت، أنا التائب القلق المذنب، وكنت أتردد فى اجتياز عتبة هذا الباب، ولو لم أتذرع بالشجاعة، لبقيت فى الشارع أبكى وأصلي، فأرجو المغفرة يا مرجريت، لقد كتب الىّ أبى بكل ما حدث وأطلعنى على الحقيقة كلها، وكنت لا أعرف

إلى أين أذهب لأنسى وخز الضمير، وأهرب من حبي، فطفت بالبلاد كالمجنون، وكنت أسافر ليلا ونهارا بلا راحة ولا توقف ولا نوم، تلاحقنى الأفكار السوداء، وتقلق الهواجس خاطري، ولو لم أجدك الآن هنا أمامى حية ترزقين، لقتلت نفسى اعتقادا منى بأننى أنا الذى قتلتك. إننى لم أر أبى بعد، ولكنى ذاهب إليه.. فأرجو أن تقولى لى كلمة يا مرجريت.. كلمة أفهم منها أنك تغفرين لى وتسامحينني، وتغفرين أيضا لأبى وتسامحينه.

إننى لسعيد جدا برؤيتك اليوم يا مرجريت!

وهنا ترد مرجريت على عشيقها قائلة:

– أتطلب منى أن أسامحك يا صديقي؟.. إننى أنا المذنبة.. أنا وحدي... ولكن، هل كان بوسعى أن أفعل غير ما فعلت؟ لقد كنت راغبة فى أن أراك سعيدا، كنت أريد لك السعادة دونى أنا، ولا أبالى بشقائى بعد ذلك.. وأعتقد أن أباك لن يفعل بعد الآن ما يفرق بيننا، أليس كذلك؟ إننى لم أعد كما كنت من قبل، شابة جميلة، ولكننى سأستعيد شبابى وجمالى من أجلك يا أرمان، وسأجعلك تنسى كل شئ، وسنعيش معا فى هناء لا هناء بعده، منذ اليوم.. أليس كذلك؟

وينسى العاشقان ما مضى من آلام وخلاف وشجار، ويعتقد كل منهما فى قرارة نفسه أن الشقاء قد ولى وأن السعادة أقبلت، فيقطع أرمان على نفسه عهدا بالبقاء:

– لن أتركك بعد الآن يا مرجريت، وسنرحل عن هذا البيت، ولن نعود أبدا إلى باريس..

ان أبى يعرف من أنت، وسوف يحبك، وتعيشين معنا فى بيتنا، مع أختى وزوجها.. إن المستقبل لنا يا مرجريت!

وهكذا عادت الأمور إلى مجاريها بين العاشقين، أو خيل إليهما ذلك، ولكنهما لم يحسبا حساباً للمرض الذى يسرى فى جسم المرأة، والموت الذى يترصدها.

فقد عاودها السعال فى اللحظة التى كانت تفتح فيها ذراعيها للحبيب، وانقطع حبل أملها فى اللحظة التى كانت تمنى فيها النفس بمختلف الآمال، وسقطت على سريرها ترتعد وتنتحب.. وتقول بصوت يقطع نياط القلوب:

– إننى أريد أن أعيش يا أرمان.. وإذا كانت عودتك لا ترجع إلى الحياة فإنه لا شئ فى الدنيا يرجعها إلى بعد الآن فأنت كل أملى وأمنيتى ورجائي، وأنت حياتي، نعم، لا بد للإنسان من أن يموت فى النهاية، فالموت خاتمة كل طريق وهدف كل حياة، ولكننى لم أنعم بعد

بما أتوق إليه من حب وإخلاص، لقد عشت للحب، ولكنه كان دائما يفر أمامى ويفلت من يدي، فهل أنا الآن على حافة القبر؟

وحاول الشاب أن يطرد اليأس عنها، ولكنها كانت تشعر شعوراً عميقا بأن ساعتها الأخيرة قد دنت، فقالت لعشيقها العائد الشاب:

– أرمان... لو لم أكن فى حالة من اليأس الذى لا رجاء بعده، لما كتب إليك أبوك بأن تعود إلى...

وتغيرت فجأة لهجتها، واعتقدت اعتقادا راسخا أنها تخطو خطواتها الأخيرة إلى القبر، وألا أمل لها بعد فى الحياة، فمضت تقول:

– سواء أكنت راضية أم غير راضية، فلا بد يا صديقى من الخضوع لمشيئة الله، والله يريد لى أن تختتم حياتى اليوم، ولا مرد لإرادته، ولو كنت فتاة صالحة لبكيت لحرمانى من هذه الحياة، ولذهابى فى وقت تبقى فيه أنت هنا وأحرم منك، ولكننى فتاة طائشة ذات ماض أثيم، فخير لى أن أرحل وآخذ معى آثامى ولا أترك لك غير ذكرى الأيام الهنيئة السعيدة التى قضيناها معا... إن الله يريد هذا.

إذن، فإن غادة الكاميليا تعترف بأنها كانت امرأة مذنبة، وبأن الموت العاجل خير لها من البقاء فى عالم لم ترتكب فيه غير الآثام.

وتأثر أرمان وبكى، فجعلت هى تشجعه قائلة:

– كيف؟.. أعلىّ الآن أن أبعث الشجاعة فى نفسك؟

إن مرجريت جوتيه تقدم على خطاياها، وتشجع عشيقها على تحمل الفراق الأبدى الذى لا لقاء بعده، ثم تعطيه صورة صغيرة صنعت لها وهى فى أوج مجدها وروعة جمالها، وتقول له:

– خذ هذا الرسم تذكارا منى، وإذا حدث أن أحبتك فتاة طاهرة وأصبحت زوجة لك، ثم رأت معك هذه الصورة، فقل لها: إنها صورة فتاة مسكينة تطلب منا أن نصلى من أجلها، وإذا كانت زوجتك المقبلة غيورة، مثل غيرها من النساء، وطلبت منك أن تضحى بهذه الصورة، فافعل بلا تردد، فإن ذلك سيكون عدلا ضروريا، وإننى أسامحك على ذلك من الآن، فإن المرأة العاشقة تتألم اذا أحست أن حبيبها مال إلى غيرها.

ويدخل على العاشقين بعض الأصدقاء، فتواصل مرجريت حديثها المتقطع معهم، ثم تسقط بين ذراعى أرمان حبيبها جثة هامدة، فتصعد روحها إلى خالقها، ويصبح الحبيب

يائسا: «ماتت ؟!»، ثم يلقى بنفسه عليها...

هكذا أراد دوماس أن تموت مرجريت جوتيه، غادة الكاميليا، لا كما ماتت مارى دوبليسى التى أوحت إليه بقصته ومسرحيته فى بعض مشاهد المسرحية، أراد دوماس أن يجعل بعض الشبه بين «غادة الكاميليا» و«مانون ليسكو»؛ لأن مارى دوبليسى كانت معجبة بحياة تلك الغانية التى عاشت قبلها بأكثر من قرن من الزمن.

ففى مشهد الميسر وتأنيب أرمان لمرجريت وإلقاء المال فى وجهها، وفى مشهد الموت وغيره، ما يذكر ببعض الوقائع التى وصفها الأب بريفو فى قصة مانون ليسكو، وهذا ما حمل بعض الناقدين على القول بأن دوماس نقل جزءا من روايته عن قصة بريفو هذه.

ودوماس نفسه لا ينكر أنه استعان ببعض مشاهد قصة مانون، ولكن هذا لا يعد نقلا ولا نسخا؛ فالواقع أن دوماس، قد كان فى وقت من الأوقات عشيقا لأجمل الغانيات فى باريس، قد وضع قصته ومسرحيته «غادة الكاميليا» لغرضين: الأول، تخليد ذكرى عشيقته، والثانى الدفاع عن المرأة التى تسقط فى هوة الفساد مدفوعة بالظروف والأقدار والضرورة، وكان للخيال فى القصة وفى المسرحية قسط كبير، يفوق بلا شك الحقيقة الواقعة المستمدة من حياة مارى دوبليسي.

obeikandl.com

الكتاب القادم

رسول القيصر

obeikandl.com

طبع بمؤسسة بسطرون
٠١٢٢٩٣٠٠٠٢٩

obeikandl.com